



للذي لابد منه

تأليف
أحمد بن عبدالله السلمي

طبع على نفقة مؤسسة الحرمين الخيرية
فرع الإحساء

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ دار القاسم للنشر والتوزيع ، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السلمي ، أحمد عبدالله

تزود للذي لابد منه/ أحمد عبدالله السلمي.ـ الرياض، ١٤٢٣هـ.

٢٠٨ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٧ ـ ٦٦٩ ـ ٣٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الموت ٢ ـ البرزخ أ ـ العنوان

ديوي ٢٤٣ ١٤٢٣/٤٣٣٤

رقم الإيداع: ١٤٢٣/٤٣٣٤

ردمك: ٧ ـ ٦٦٩ ـ ٣٣ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

حضرت الوفاة رجلاً من السلف فقيل له كيف حالك؟ فقال: «كيف يكون حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد، ويقدم على ملك عادل بغير حجة، ويسكن قبراً موحشًا بغير أنيس؟!».

وهذا الفضل بن عياض لما حضرته الوفاة غُشي عليه ثم أفاق وقال: «يا بُعد سفري وقلة زادي».

إخواني فما زاد نا نحن وهذه الدنيا تلهينا والشيطان يغوينا، فيا ليت شعري من ينجينا في تلك اللحظة وليس معنا إلا سيئات ومنكرات ونحن نحسب أنَّها حسنات وطاعات؟!

إذا أنـت لـم تـرحـل بـزاد مـن الـتـقـى
ولاقـيـت بـعـد الموت من قـد تـزوَّدا
نـدمـت عـلى ألاَّ تـكـون كـمـثـلـه
فـتـرصـد للأمـر الذي كـان أرصـدا

تزود للذي لابد منه
فإن الموت ميقات العباد
وتب مما جنيت وأنت حي
وحاذر قبل يوم الرقاد
أترضى أن تكون رفيق قوم
هم بزاد وأنت بغير زاد

***

أزف الرحيل وليس من زاد
غير الذنوب لشقوتي ونكاد
يا غفلتي عما جنيت وحسرتي
يوماً ينادي للحساب مناد
غلبت علي شقاوتي ومطامعي
حتى فنيت وما بلغت مرادي
يا غافلاً عما يُراد به غداً
في موقف صعب على الرواد
اقرأ كتابك كل ما قدمته
يحصى عليك بصبيحة الميعاد
كيف النجاة لعبد سوء عاجز
وعلى الجرائم قادر معتاد
يا غافلاً من موتك فاتعظ
والبس ليوم الجمع ثوب حداد

تزود للذي لابد منه

بسم الله الرحمن الرحيم

تزود للذي لابد منه

الحمد لله الذي تفرد بالبقاء والدوام، ولم يزل باقياً بلا انقضاء ولا زوال، جعل هذه الحياة محلاً للاعتبار والابتلاء، وحكم على أهلها بالزوال والفناء تحت أطباق الثرى إلى يوم البعثِ والجزاء، فإمَّا إلى دار نعيم أو شقاء.

فسُبحانه عز وجل من قاهر عظيم، أذلَّ خلقه بالموتِ حقاً.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أرجو بها النجاة في البرزخ والحشر والمعاد.

وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، خير من دعا إلى سبيل الهدى والرَّشاد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم التناد، وسلِّم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإنَّ الناس لم يخلقوا عبثاً ولن يُتركوا سُداً، إنما خلقوا لأمرٍ خطير ونبأ عظيم؛ لمعرفة الله - عز وجل - والتنبه لعظيم شأنه وكبير قدره.

خُلقوا لبذل الجهد في طاعته بالعلم بأمره والإخلاص لوجهه، والإحسان إلى عباده.

ثم إنهم لن يُتركوا سُدىً، بل بعد موتهم سيُبعثون وإلى ربهم سيرجعون، وعلى أعمالهم سيحاسبون، ولكنَّ أكثر الخلق عن هذا غافلون، وعما خُلقوا لأجله مُعرضون، وبالدنيا الدَّنيئة منهمكون ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] اتبعوا الشهوات فلم يحرصوا إلا عليها، واشتغلوا باللذات فلم يلتفتوا إلا إليها، فمتى أولئك يا ترى يفيقون ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ألهتهم الأموال، وكأنهم لا يدرون أنهم بين يدي الله واقفون ﴿أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ

أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٥].

أخي: كم شاهدنا إنساناً جدَّ واجتهد ونال أعلىٰ الرّتب، ثم وافاه الأجل ولم ينل حظه الذي كان يؤمل من الدنيا، وكم سمعنا عن إنسان اشترىٰ البيت الفخم وخطب الفتاة الحسناء، ثم جاءه الموت ولم يسكن البيت الذي اشترىٰ، ولم يبن بالفتاة التي بها حلم.

وكم بلغنا عن إنسان جمع المال الكثير واشترىٰ الأثاث الوفير، واقتنىٰ السيارات الفارهة، وملك البساتين الواسعة، ثم حرم لذيذ المطعم والمشرب، والمنكح والملبس؛ بسبب مرض عضال أصابه، أو عقم انتابه فنغص حياته وسلب سعادته.

فلماذا يجهد الإنسان نفسه كل إجهاد وينشط لتأمين مستقبله القريب والقصير غاية القصر، ويهمل أمر مستقبله الأبدي و مصيره السرمدي.

لماذا يتعب نحو العشرين أو الثلاثين سنة لتحقيق سعادة موهومة وليست مضمونة، ولا يتعب مثل ذلك علىٰ الأقل لتحقيق السعادة الأبدية الباقية؟!

لماذا يجد كل الجد لينجو من الفقر والضيق، ولا يجد مثل ذلك علىٰ أضعف الإيمان لينجو من العذاب والنيران، ويخلص من الأهوال والويلات في دار البقاء والخلود، أهو شاك في ذلك؟ إذن فليفكر في ذلك الأمر تفكيراً جدياً، وليدرسه طويلاً ملياً، وليعره ما يستحق من الاهتمام حتىٰ يصل فيه إلىٰ رأي ويستقر فيه، فليس الأمر بالهزل بل هو الجد كل الجد، وعليه يتوقف مصير الإنسان الأبدي وشقاوته وسعادته الخالدة، فإن أهمله وألقاه وراء ظهره ندم ولات ساعة مندم، ولا يمكن عند ذلك تدارك ما فات.

وليتب وليرجع إلىٰ الله ـ عز وجل ـ الآن هذه اللحظة، بل في هذا النَّفس، وليحذر كل الحذر من التسويف، فـ(سوف) جند من جنود إبليس.

فمن الناس من يزين له الشيطان هواه ويدعوه إلىٰ تأجيل التوبة ومنهم من

يقول: «إنني الآن شاب وينبغي أن أنال متاع الدنيا بغير قيود حتى إذا ما اقترب أجلي تُبت وندمت».

ونسمع كثيراً نحو هذه الكلمات ترددها الألسن: سوف أتوب إن شاء الله، سوف أتوب عندما أكبر، سوف أتوب عندما . . . !

وهذا والله هو الخذلان، حيث إن الموت يأتي ولا يُفرق بين الطفل والشَّاب والصبِّي والعجوز، وحتى الجنين في بطن أمه، والعلماء رحمهم الله يقولون: **«تأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه»**.

وقد ورد أنَّ أكثر صياح أهل النار من كلمة «سوف»! يقولون: (واحزناه من كلمة «سوف»).

وقال بعضهم: أحذركم «سوف أتوب»، و «سوف أصوم»، و «سوف أصلي» و «سوف أقلع».

رجل دائم السفر إلى ديار العهر كل صيف وكان متزوجاً وله أولاد وعمره لم يناهز الثلاثين عاماً، إلا أنه مازال على عادته القديمة لا يفكر إلا في شهواته وملذاته في الحلال أم في الحرام، لقد سافر ووجه أبيض وكله شباب وقوة، وفي إحدى الليالي الساهرة تعرف هناك على راقصة عاهرة فرافقها إلى إحدى الشقق وكان بانتظاره من؟ كان بانتظاره ملك الموت فما إن اقترب منها وجاءت اللحظة الحاسمة نادى المنادي الرحيل . . الرحيل . . . فقبضه ملك الموت ورجع إلى بلده محملاً بالتابوت وفتح التابوت وإذ بالمفاجأة الكبرى والحسرة العظمى وهي أن وجهه أصبح أسود، نسأل الله السلامة.

فوا أسفا لمنقطع دون الركب، متأخر عن لحاق الصحب، يعد الساعات في «متى» و «لعل» ويخلو بفكر «عسى» و «هل» فاحذر التسويف يا أخي:

ولا ترجِّ فعل الخير يوماً إلى غدٍ　　　لعل غداً يأتي وأنت فقيد

إن النَّفس قد يخرج ولا يعود، وإن العين قد تطرف ولا تطرف الأخرى إلا بين يدي الله.

ولا أدخر شغل اليوم عن كسل إلىٰ غدٍ إن يوم العاجزين غداً

وكيف يضمن الإنسان أجله وروحه بيد غيره يقبضها متىٰ شاء ليحاسبه؟ ، بل كيف يسوغ التسويف في حقِّ من يعلم أنه مسئولٌ عن طاعة ربه من يوم تكليفه إلىٰ يوم موته؟ ، ولم يجعل الله ـ عز وجل ـ لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

أعماركم تمضي بسوف وربما لا تغنمون سوىٰ عسىٰ ولربما

هم المُسوِّف كالتعلق بالسماء أيامكم تمضي عجالاً إنَّما

إن كثيراً من النَّاس مع الأسف يقف من هذه القضية التي هي أخطر القضايا، موقف اللامبالات ولا يُعيرها أدنىٰ انتباه، فإذا حذره واعظٌ من النار، قال له عابثاً: «لا بأس من ذلك، فهناك نلتقي بالمطربين والمطربات والفنانين والفنانات» فلأمثاله يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وإذا نَصحه ناصحٌ بتقوىٰ الله ـ عز وجل ـ وأداء الواجبات واجتناب المنكرات وذكر بالموت والآخرة والنار والجنة، بادر بقوله: «إن الله غفور رحيم».

أو قال: «ليوم الله يُفرجها».

فأيُّ فرج يؤمله هذا العاصي لربه، والمسرف علىٰ نفسه، الفاسق عن أمر خالقه؟!

إذن لِمنَ أُعدّت النار؟.

قل لي بالله عليك: متىٰ تتيقظ وماضي الشباب لا يعود؟.

ويحك كيف تُقْدِمُ علىٰ سَفَرِ الآخرة بلا زادٍ ولا راحلةٍ؟.

ستَندم إن حان الرحيل، وأمسيت مريضاً تُقاد، ومنعت من التصرف فيما جمعت من الأموال، ومُنع عنكَ العُوَّادُ، وكُفِّنت بأبيض الثياب، وحملت علىٰ الأعواد، وأودعت في ضيق لحدٍ، وغربة ما لها نفاد، تغدو عليك الحسرات، وتروح إلىٰ يوم التناد.

أتدري ما معنى قوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وحينما قال - عز وجل -: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فلماذا أعقبها بقوله - عز وجل -: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وإذا كان الله توعد المصلين الذين يغفلون عن بعض الصلوات ويُضيعونها بقوله - عز وجل -: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٣ - ٤]. وأخبر ﷺ أنَّ من فاتته صَلاة العصر فكأنما وَتر أهله وماله، أي: خَسرِهم[1].

فكيف بمن يترك كُلَّ الصلوات ويأتي كثيراً من المنكرات؟!

وما معنى قوله - عز وجل -: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقوله - عز وجل -: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣][2].

مر الفضيل بن عياض برجلٍ فقال له: كم مضى من عمرك؟.

قال: ستون عاماً.

قال: فأنت منذ ستين عاماً تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ.

فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟، تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فمن علم أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جواباً.

فهل أعددت جوابك يا ابن آدم يوم تقوم بين يديه؟، أعد لذلك السؤال جواباً، وليكن جوابك حقاً صواباً، وإلا والله لا أخالك ناجياً.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٢) ومُسلم (٦٢٦).

(٢) من (قضية الإنسان الكبري الخطر الرهيب) لمحمد عيد عباسي (٦٨ - ٧١).

وإليك أخي الكريم هذه الموعظة، سائلاً الله ـ عز وجل ـ أن ينفعني وإياك بها والتي هي بعنوان: **(تزود للذي لابد منه)**.

أدعوك أخي في الله وأدعو نفسي إلىٰ امتثال أوامر الله ـ عز وجل ـ واجتناب منهياته؛ لتفوز بالسعادة الأبدية، وتسلم من الشقاء الأبدي والعذاب الشديد السرمدي.

عن جبير بن نفير، قال: (لما فتحت قبرص فرق بين أهلها، فبكىٰ بعضهم إلىٰ بعض. ورأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي. فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله ـ عز وجل ـ الإسلام وأهله؟.

فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق علىٰ الله إذا هم تركوا أمره؟ بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله ـ عز وجل ـ فصاروا إلىٰ ما ترىٰ)

أخي لو كنت مريضاً وأتيت طبيباً ونصحك بترك ألذِّ الشهوات وخوفك علىٰ تناولها الموت أو زيادة المرض لامتنعت عنها وأنفت منها محافظة علىٰ صحتك وحياتك، أفكان الطبيب عندك أصدق من الله ـ عز وجل ـ؟ أم كان المرض أشد عليك من النار؟.

ألست تتقي برد الشتاء وحر الصيف؟ ترىٰ نفسك إذا جاء فصل الشتاء كيف تبالغ وقاية نفسك وأولادك من البرد القارس... نعوذ بالله من زمهرير جهنم.

وإذا جاءك فصل الصيف كيف تهرب من حرارة الشمس المحرقة؟ وتبحث عن ظلٍ باردٍ وماءٍ باردٍ يروي عطشك.. فنار جهنم أشدُّ حراً وأبقىٰ عذابا، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١] ومن دخلها لا يموت فيها ولا يحيا، ولا يفتر عنه العذاب ساعة، ولا يرجو فرجا ولا مخرجا كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [البينة: ٨] نعوذ بالله ـ عز وجل ـ من حر جهنم.

أم صار حرَّ جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحس بألمها إلا يوماً أو أقل منه؟!.

والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت ثوبك في الحال من

غير مطالبة له بالدليل والبرهان.

أفكان قول الأنبياء وورثتهم العلماء أقل عندك من قول صبي [مرفوع عنه القلم]؟!.

ما هذه أفعال العقلاء، بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك.

وليس يزجركم ما توعظون به والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

فهل آمنت بالله حق الإيمان فرجوت ثوابه وخفت عقابه، وعملت أعمالاً صالحة لتنجو؟ أم فيك صبر وجلد على النار؟ أم أنت ممن يكذب بيوم الدين[1].

تفر من الهجير وتتقيه فهلا من جهنم قد فررتا

وليست تطيق أهونها عذابا ولو كنت الحديد بها لذبتا

يا أخي: أتظن أنَّك تطيق عذابه؟ هيهات هيهات جرِّب بنفسك وضع أصبعك على النَّار لترى ضعفك، وهوانك ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ⑮﴾ [المعارج: ١٥].

فهل فكرت بجد وصدق أن تقي نفسك وأهل بيتك عذاب جهنم؟ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

أخي: ليكفك من الدنيا نعمة الإسلام، وليكفك من الشغل الطاعة، وليكفك من العبر الموت.

عبد الله عبدالله: من أين جئت؟ ومن الذي جاء بك؟ ولماذا جئت؟ وإلى أين تسير؟ وإلى أين المصير؟.

عبدالله: لقد كنت جنينا في بطن أمك، ثم وليدا، ثم رضيعا، ثم فطيما، ثم طفلا، ثم مميزا، ثم مراهقا، ثم بالغا، ثم أشدا حتى الأربعين، ثم كهلا، ثم شيخا، ثم شيبة، ثم هرما قد رددت إلى أرذل العمر، ثم موت، ثم قبر، ثم بعث، ثم حشر، ثم موقف بين يدي الله، ثم عرض على الله - عز وجل -، ثم

(١) من رسالة (كلمات مختارة) لابن جار الله.

تطاير الصحف، ثم حساب، ثم ميزان، ثم صراط، ثم حوض يذاد عنه كل منافق فتان، ثم جنة للمتقين أو نار للكافرين.

فسبحان من خلق الخلق وحكم عليهم بالموت فما لأحد عنه محيص ولا محيد فكم أثكل خليلا بفراق خليله. وكم أيتم ولدا وشغله ببكائه وعويله. فهو لا يبدي بعد رحيله ولا يعيد. هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالموت على أهل هذه الدار. وجعلهم عرضا لسهام الأقدار. الأحرار منهم والعبيد، وعوضهم عن لذة العيش بالتنغيص والتنكيد. فالملك والمملوك. والغني والصعلوك تساوت في قبورهم في الفقر والبيد. فسبحان من أذل بالموت الجبابرة كل جبار عنيد. وكسر به الأكاسرة كل بطل صنديد. أخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور. وقطع حبل أمدهم المديد. أخذ بهم الآباء والجدود. والأطفال في المهود. وسكنهم اللحود. وعفر وجوههم في التراب والصعيد. وساوى في الموت بين الصغير والكبير. فهم في بحر الأجداث إلى يوم الوعيد. أفلا يعتبر العاقل بمصرعهم وقد أفناهم الموت بأجمعهم وفرق شملهم بالتبديد. فكيف يغتر الإنسان وهو عالم بأن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ولم يكن عنه محيد. أما كانت أنفسهم بذلك عالمة وهي من الموت غير سالمة. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

أين أهل المدائن والحصون. أين أهل الممالك والقرون. أين أرباب المعاني والفنون. أين المتحصنون بكل حصن منيع. وقصر مشيد. أين الأمم الماضية. أين أرباب القصور العالية؟ حق عليهم الوعيد فلو عاينتهم في قبورهم لرأيت العجيب من أمورهم. قد غير البلاء أحوالهم ومزق أوصالهم. ولم يعرف منهم الأحرار والعبيد. أما أصبح ذو الشدة والبأس بعد القرب والإيناس في ظلمة اللحود وحيد. أما أوعظهم الموت بما أخذ منهم من شقي وسعيد وقريب وبعيد. أما أنذرهم قول الملك المجيد ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] ويحك انتبه لنفسك واعمل لما تلقى غدا، فالموت يأتي بغتة وليس عنه

محيد. من لك إذا ملَّك من كان يهوىٰ صحبتك وصرت في اللحد وحدك مفلس غريب وحيد. إن كنت يا صاح نائماً فلابد في القبر تنبيه. إذا رأيت الخلائق في موضع التهديد وقيل اقرأ كتابك كفىٰ بنفسك شاهدة. وقد أتيت الموقف بسائق وشهيد فدع دموعك تجري قبل أن يقال لمن عصىٰ، ألم تك قبل تدري أن الحساب شديد. ترىٰ الخلائق حيارىٰ من أهوال ما قد شاهدوا ولست تدري أن الحساب شديد ولست تدري من هو شقي وسعيد، فمن أطاع المولىٰ فذلك منه قد قُرِّب، ومن عصىٰ وأجرم وخالف فذاك منه بعيد. كل القلوب قد لانت لكن قلبي قد قسىٰ كأن قلبي أضحىٰ بين القلوب حديد. ويحك فهيء زادك واحذر تقيد ناقتك قبل أن تسافر وحدك ما ينفع التقييد. ويحك فراقب ربك واسمع كلامي. واتعظ عسىٰ قساوة قلبك تلين بالتسديد. فيا غافلاً عن الموت وقد هدم ركن عمرك المشيد. إلىٰ متىٰ في نوم غفلتك لا تبدي ولا تعيد. أما ألهجك الوعد أما أنذرك الوعيد. أما سمعت قول الملك المجيد ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

يا عبدالله يا عبدالله: أين الآباء والجدود أين الأقرباء والجيران ومن كان معك في المجالس شهود. أتاهم والله هادم اللذات، ومفرق الجماعات وقاطع الشهوات، فأخلىٰ منهم المشاهد وعطل منهم المساجد. تراهم في بطون اللحود صرعىٰ.

ومن أعجب الأشياء أنك تعلم أنك مأخوذ بما تتجرم. وأنت علىٰ ما أنت غير مقصر ولا مقلع عما عليك يحرم. كأنك في يوم القيامة آمن إذا برزت للمجرمين جهنم. فلا تغترر بالعمر إن طال واعتبر فإنك لا تدري متىٰ يتصرم. وتسكن بيتاً غير بيتك مظلماً، وما فيه مشروب وما فيه مطعم، وتترك ما كنت فيه محكما. وغيرك لو علمت فيه المحكم. وتأتي من بعد يسرك معسراً ومالك دينار وما لك درهم. فإن كنت قد قدمت لنفسك من قبل صالحاً فإنك من هول القيامة تسلم. فكن مقلعاً وارجع إلىٰ الله واغتنم بقاءك في الدنيا فمحياك مغنم.

لو تفكرت النفوس فيما بين يديها، وتذكرت حسابها فيما لها وعليها، لبعث حزنها بريد دمعها كل وقت إليها. أما يحق البكاء لمن طال عصيانه؟ أما يحق

البكاء لمن حان أوانه؟ أما يحق البكاء لمن طال زمانه؟ . نهاره بالمعاصي فقد جف ديوانه، وليله بالمعاصي فقد خف ميزانه، وبين يديه الموت الشديد لقاؤه وعيانه . والقبر المظلم المنهدمة أركانه والعرض الكبير فيه ذله وهوانه . والحساب الشديد فيه ينشر ديوانه والقيام لرب العالمين فيه يفضح بين رؤوس الخلائق بمخازي أعماله .

أنوح على نفسي وأبكي خطيئة تقود خطايا أثقلت مني الظهرا فيا لذة كانت قليلاً بقاؤها ويا حسرة دامت ولم تبق لي عذرا . ذكر العرض أجرى دموع الخائفين . وهول الحساب قلقل أفئدة التائبين .

سأل رجل ذا النون فقال : ما الذي أنصب العباد وأضناهم فقال : ذكر المقام وقلة الزاد وخوف الحساب، ولما تذوب له قلوب العباد وتذهل عقولهم، والعرض على الله أمامهم والملائكة وقوف ينتظرون أمر الجبار في الأخيار والأشرار، فمثل القوم ذلك في نفوسهم وجعلوه نصب أعينهم .

عبدالله تمر الأيام وتمر الليالي، وتمضي الأعوام وينقضي العمر . . ولا ينتبه المرء من لعب الصبا وقد أثقلته أعباء الكهولة، ولا يستريح من أعمال الشباب حتى تحني الشيخوخة ظهره . . ثم يأتيه الأجل المحتوم .

يا شيخ كف عن الذنوب والزلل ... واعمل لنفسك صالحاً قبل الأجل

واقصد مصالحها واعمل لها ... ما دام يمكنك العمل

أما الشباب فقد مضى ... ومشيب رأسك قد نزل

* * *

لا تخطون إلى خطأ ولا خطا ... من بعدما الشيب فوديك قد خطا

فأي عذر لمن شابت مفارقه ... إذا مشى في ميادين الصبا وخطا

* * *

هل الشباب الذي قد فات مردود ... أم هل دواء يرد الشيب موجود؟

ولما رأيت الشيب أيقنت أنه ... رجوع عقارب الشباب بعيد

مضى زمن الصبا وحب الحبائب كفى عيبا وشيبا ذيب الذوائب

فيا أخي المسلم: احذر أن تشغلك الدنيا عن الآخرة وأن تشتري العذاب بالمغفرة، وأعلم أن العمر قصير، والحياة ساعة فاغتنمها قبل أن تحمل على أكتاف الرجال إلى حفرة صغيرة ضيقة، في بيت الدود في لحدك، وحدك في القبور التي تخرق الأكفان وتمزق الأبدان وتمص الدم وتأكل اللحم.

الله أكبر كم من نائم ونائمة أصبحت وجوههم بالية، أين الحدائق والقصور؟ أين الزوجة والأولاد؟ أين المال والأملاك؟ انتبه فالرحيل قريب، والطريق مخوف، والخطر عظيم، والخالق بصير سميع عليم شهيد.

فمثل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات، فمن قائل يقول: (إن فلاناً قد أوصى، وماله قد أحصى).

ومن قائل يقول: (إن فلاناً ثقل لسانه فلا يعرف جيرانه ولا يكلم إخوانه).

وكأني أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تستطيع الجواب، ثم تبكي ابنتك عليك وهي كالأسيرة وتتضرع وتقول: (حبيبي أبي... من ليتمي من بعدك؟ ومن لحاجتي؟) وأنت تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب:

كأنك توصي واليتامى تراهم وأمهم الثكلى تنوح وتندب
تغص بحزن ثم تلطم خدها يراها رجال بعدما هي تحجب
وأقبل بالأكفان نحوك قاصدا ويحثي عليك الترب والعين تسكب

فحينئذ تقول أنت:

وأقبلت الصغرى تمرغ خدها على وجنتي حينا وحينا على صدري
وتخمش خديها وتبكي بحرقة تنادي أبي أبي إني غلبت على الصبر
حبيبي أبي من لليتامى تركتهم كأفراخ زغب بعيدا عن الوكر

فتخيل نفسك يا ابن آدم إذا أخذت من فراشك إلى لوح مغتسلك فغسلك الغاسل وألبسك الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وحملت على العيدان.

سيعرض عني وتنسى مودتي ... ويحدث بعدي للخليل خليل
إذا ما انقضت يوما من العيش مدة ... فإن بكاء الباكيات قليل

واعلم بأن كل باك فسيبكي، كل ناع فسينعى، كل مذخور سيفنى، كل مذكور سينسى ليس غير يبقى، من علا فالله أعلى. من علا فالله أعلى.

فما تزود مما كان يجمعه ... سوى حنوط غداة البين في خرق
وغير نفحة أعواد تشب له ... وقلَّ ذلك من زاد لمنطلق
بأيما بلد كانت منيته ... إن لا يسر طائعًا في قصدها يُسَق
تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثًا

***

وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

***

نصيبك مما تجمع يا هذا الدهر كله ... رداءان تلقى فيهما وحنوط

***

قال أبو هزار ـ وهو شيخ من بني تميم ـ: قالت أم الدرداء ـ رضي الله عنها: أبا هزار، ألا أحدثك ما يقول الميت في سريره؟

قال: قلت: بلى.

قالت: «فإنه ينادي: يا أهلاه، ويا جيراناه، ويا حملة سريراه، لا تغرنكم الدنيا كما غرتني، ولا تلعبن بكم كما لعبت بي، فإن أهلي لم يحملوا عني من وزري شيئا».

يا عبدالله: لا تغتر بالدنيا، وفكر واعتبر بهذه المواقف.

* اجتاز بعض الصالحين بدار فيها فرح وقائلة تقول في غنائها:

ألا يا دار لا يدخلك حزن ... ولا يزري بصاحبك الزمان
فنعم الدار تؤوي كل ضيف ... إذا ما ضاق بالضيق المكان

ثم اجتاز بها عن قريب وإذا الباب مسدود وهي خراب، وفي الدار بكاء

وصراخ، فسأل عنهم فقيل له: مات رب الدار.

فطرق الباب وقال: سمعت من هذه الدار قائلة تقول كذا وكذا.

فبكت امرأة وقالت: «يا عبدالله إن الله يغير ولا يتغير، والموت غاية كل مخلوق، والله ـ عز وجل ـ قد دخل بالدار الحزن وذهب بأهلها الزمان».

فانصرف من عندهم باكياً.

* وقالت بعض ملوك العرب الذين نكبوا: أصبحنا وما في العرب أحد إلا وهو يحسدنا ويخشانا، وأمسينا وما في العرب أحد إلا وهو يرحمنا، ثم قالت:

وبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة ليس ننصف

فأف لدار لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف

* ودخلت أم جعفر بن يحيى البرمكي على قوم في عيد أضحى تطلب جلد كبش تلبسه، وقالت: هجم عليّ مثل هذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة قائمة، وأنا أزعم أن ابني جعفر عاق لي.

* وكانت أخت أحمد بن طولون صاحب مصر كثيرة السرف في إنفاق المال، حتى إنها تزوجت بعض لعبها فأنفقت على وليمة عرسها مائة ألف دينار، فما مضى إلا قليل حتى شوهدت في سوق من أسواق بغداد وهي تسأل الناس.

* خلع بعض خلفاء بني العباس وكحل وحبس، ثم أطلق سراحه، فاحتاج إلى أن يقف يوم جمعة في الجامع وقال للناس: «تصدقوا علي فأنا من قد عرفتم».

ولله در القائل:

لا تهن الفقير علك أن ... تركع يوماً والله قد رفعه

* وقال رجل: جدتي عمرها في الثمانين، تطعم تصيح صياح الطفل، وتطلب ألاعيب الأطفال.

أخي في الله: هذه الدنيا ونهايتها، فلا تغتر بها واعتز بالله ـ عز وجل ـ فمن اعتز بما له قل، ومن اعتز بالدنيا زل، ومن اعتز بعلمه ضل، ومن اعتز بنفسه ذل،

ومن اعتز بالناس مل، ومن اعتز بصحته اعتل، ومن اعتز بعقله اختل، ومن اعتز بالله ـ عز وجل ـ فلا ذل، ولا زل، ولا ضل، ولا مل، ولا قل، ولا اعتل، ولا اختل.

ودخل ابن السماك يوماً فاستسقى الرشيد فأُتِي بقلة فيها ماء مبرد فقال لابن السماك عظني فقال يا أمير المؤمنين بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعتها فقال: بنصف ملكي. فقال: اشرب هنيئاً. فلما شرب. قال: أرأيت لو مُنعت خروجها بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بنصف ملكي الآخر. فقال: إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء وقيمة نصفه الآخر بولة لخليق أن لا يتنافس فيه. فبكى هارون.

* وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب (ذم الدنيا) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «جاء ملك الموت ـ عليه السلام ـ إلى نوح ـ عليه السلام ـ فقال: يا أطول النبيين عمرا، كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ فقال: كرجل دخل بيتاً له بابان، فقال في وسط البيت: هنيهة ثم خرج من الباب الآخر».

وهو ـ عليه السلام ـ الذي عُمِّر أكثر من ألف عام. وقد ورد أن امرأة من بني إسرائيل مات ابنها، فبكت عليه. فقيل لها: ما يبكيك؟ فقالت: مات ابني صغير السن. فقيل لها: كم عمره؟ فقالت: عمره ثلاثمائة سنة. فقيل لها: فما بالك بأقوام من أمة محمد أعمارهم بين الستين والسبعين؟ فقالت: والله لئن أدركتهم لأمكثن هذه الستين سنة ما بين ساجدة وراكعة. ا. هـ.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: **«أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»**(١).

تالله لو عاش الفتى في دهره	**ألفا من الأعوام ما لك أمره**
متمتعاً بكل نفيسة	**متنعما فيها بنعمى عصره**
لا يعتريه السقم فيها مرة	**كلا ولا ترد الهموم بفكره**
ما كان هذا كله في أن يفي	**بمبيت أول ليلة في قبره**

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠، ٢٣٣١) وابن ماجه (٤٢٣٦) وحسنه الشيخ الألباني.

وقال الآخر:

النـاس في غــفــلاتـهـم ورحـى المنـيــة تـطـحـن

يا عبدالله: هب أنك عشت المائة والمائتين، أو الألف والألفين سنة، بعد ذلك ما هو مصيرك؟!

يا عبدالله: إن أشد الأوقات على الإنسان يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه، ولما كانت هذه المواطن أشد ما تكون على ابن آدم، سلم الله ـ عز وجل ـ على يحيى ـ عليه السلام ـ في كل موطن منها فقال: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**﴾ [مريم: ١٥].

يا عبدالله ستأتيك ساعة هي أحرج الساعات وأشد الكربات كربا وأوحشها وأمضها، إنها أشد ساعة تمر عليك منذ ولادتك إلى ساعة مغادرتك في الدنيا، إنها ساعة الموت؟ وهل ساعة أعظم هَوْلاً منها؟

ستفضي بك الأيام في بعض مرِّها إلى ساعـة لا ساعـة لك بعـدها

بعث هارون الرشيد إلى أبي العتاهية، فأتاه وقد زخرف مجالسه وبالغ في ذلك، ووضع فيها طعاماً شهياً كثيرا، فقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا. فقال:

عش مــا بدا لك ســالما في ظل شـاهقـة القـصـور

يسـعى عليك بما اشـتـهـيت لـدى الـرواح وفـي الـبـكـور

قال: حسن ثم ماذا؟ قال:

فـإذا النفـوس تقـعـقـعـت في ضـيق حـشـرجـة الصـدور

فـهـنـاك تـعـلـم مـوقـنـا مـا كـنت إلا فـي غــرور

فبكى هارون الرشيد. فقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لِتَسُرَّه فأحزنته.

فقال هارون: دعه، فإنه لما رآنا في عمى كره أن يزيدنا عمى. ا. هـ.

ولله در القائل :

وللمرء يوم ينقضي فيه عمره ... وموت وقبر ضيق فيه يولج

إن للموت سكرات وغمرات وكربات ، ثم إن الموت أشد من ضرب بالسيف ، وإنما يصيح المضروب ويستغيث لبقاء روحه ، وأما الميت فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه ؛ لأن الكرب قد بلغ فيه مبلغه ، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه ، وضعفت كل جارحة فيه ، فلم يبق فيه قوة الاستعانة ، بل يود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، والروح تجذب من جميع العروق ، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجياً ، فتبرد أولاً قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، ويغلق دونه باب التوبة إن لم يكن تاب ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

عبدالله : تذكر الموت ، وما أدراك ما الموت؟! الموت أشد من ضرب بالسيوف ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما لذوا بنوم ولا انتفعوا بعيش ، ولو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه ، ولا يعرف سكرات الموت إلا من عاينها وذاقها .

وصدق الله - عز وجل - حيث قال : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] .

وقال الشاعر :

إن للموت سكرة فارتقبها ... لا يداويك إذا أتتك طبيب

فتفكر عبدالله في الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، وكفى بالموت مقرحاً للقلوب ، مبكياً للعيون ، مفرقاً للجماعات ، هادماً للذات ، قاطعاً للأمنيات .

وفي قوله - عز وجل - : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . مع قوله

ﷺ : «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[1] ما يكفي السامع له ويشغل ناظريه فيه .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

لا شيء مما يرى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها ترد

أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد

حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يوما كما وردوا

فيا هذا :

أذكر الموت هاذم اللذات ... وتجهز لمصرع سوف يأتي

واذكر الموت تجد راحة ... في ادكار الموت تقصير الأمل

يا عبدالله :

قد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلومة ولا زمن معلوم ولا مرض معلوم ولا مكان معلوم ولا حال معلوم، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك مستعداً له .

فالموت يأتي فجأة[*] بغتة، بسكتة أو نوبة أو جلطة أو صدمة أو توقف قلب أو

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧) والنسائي (١٨٢٤) وابن ماجه (٤٢٥٨) وأحمد (٧٨٦٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ صححه الترمذي، ووافقه الألباني في صحيح السنن المذكورة .

وأخرجه الترمذي (٢٤٦٠) مطولا من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ وضعفه الترمذي ووافقه الشيخ الألباني .

(*) يقول ﷺ : «من اقتراب الساعة . . . وأن يظهر موت الفجأة» وموت الفجأة : أي الموت بلا مقدمات من مرض أو نحوه وقد يكون نوع رحمة وقد يكون أخذة منتقم . وقد كان السلف الصالح يستحبون المرض قبل الموت لأنه آخر ما يكفر به المؤمن من الذنوب وحتى يستعد بالتوبة والعمل الصالح ويتهيأ .

وإن كان موت الفجأة يحدث نادراً فيمن سبق فقد زاد وانتشر في أيامنا بصورة عجيبة . موت كثير بلا إشعار ولا سابقة إنذار . نسأل الله السلامة .

تنفس ؛ فحينئذ يحين الأجل وتقوم قيامة العبد .

فكر معي قليلاً إذا مضت عليك الأيام ، وجاءك اليوم تلو اليوم فأنظر إلى آخر الأيام إذا طويت رحلك ، وأذنت بالرحيل فأين اللذات وأين الملهيات وأين الشهوات؟ كأن لم يكن شيئاً كأنك لم تنزل بذلك المكان .

نزلنا ها هنا ثم ارتحلنا   كذا الدنيا نزول فارتحال

نعم مضت الأيام والسنون والأعوام ، فالله أعلم بما خبأت فيها من خير ترجوه أو شر تلقى الله به ولله در القائل :ـ

كأن شيئاً لم يكن إذا انقضى   وما مضى مما مضى فقد مضى

أخي في الله ، أيها الشاب الحبيب ، يقول ـ عز وجل ـ : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

فمتى تتوب وتقلع؟ متى تنيب إلى ربك وترجع؟ متى تنتبه من غفلتك ولهوك؟ أعندما تفاجأ بنزع الروح وسكرات الموت؟ أعندما تنظر إلى هذه الدنيا نظرة الفراق والوداع؟ وعيون أهلك ترمقك بحسرة ولا يستطيعون رد القضاء عنك ، وقلبك يتقطع حسرة وندامة على خطيئات أسرفت بها على نفسك ، وعلى أعمال طاعة أضعتها وفرطت فيها .

ثم بادر أهلك بشراء كفنك ، ثم قلبك المغسل ، ثم رفعت على النعش فوق أكتاف الرجال لتودع في قبرك ، ثم وضعت في القبر وحيداً فريداً غريباً ، وتقدم أحد أقاربك ليجعلك في القبر على الجنب الأيمن موجها إلى القبلة ، فإذا برأسك يميل إلى الأرض ، فيجعل حثوة من التراب تحته لترفده .

وبعدها ينقطع تعلق الأحياء بك مباشرة مع آخر عقدة يحلها من كفنك ممن تولى دفنك وإنزالك في قبرك .

ثم يتقدم أبوك أو أخوك أو قريبك ليصف اللبنات على اللحد ويجتهد في سد الثغرات بينها بالطين رحمة بك .

وبعد أن يهال عليك التراب ويتم دفنك ، فإذا بك تبدأ أول مراحل الحياة

البرزخية، حيث تسمع صوت نعال ذويك وهم ينصرفون من عند قبرك، ثم تواجه مصيرك الذي أعددت له بأعمالك في هذه الدنيا، فتتوالى عليك الكربات بدءاً بفتنة القبر وسؤال الملكين:

قال الشاعر:

الشيب عنوان المنية ... وهو تاريخ الكبر
وبياض شعرك موت شعرك ... ثم أنت على الأثر
فإذا رأيت الشيب عم ... الرأس فالحذر الحذر

وقال الآخر:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب

وقال آخر:

أيا ذا الشيب مالك لا تتوب ... وقد عالى عوارضك المشيب
أبعد الشيب تعصي ذا المعالي ... جواد ماجد رب قريب
يجود بعفوه والشيخ لاهي ... فأمر الشيخ ويحكمو عجيب
أسكان القبور متى التلاقي ... وقد أودى بشمسكم الغروب

أخي في الله:

أرأيت لو أصبحت في قبرك تحتك تراب.. وفوقك تراب وأمامك تراب وخلفك تراب.. فأين يكون وقتئذ مالك...؟ ومنصبك...؟ ونسبك...؟.

تستغيث فلا أحد يسمع صوتك... وتستنشق فلا هواء إلا عملك الصالح.

يقول مالك بن أنس - رضي الله عنه -: «يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلها: أما اليومان: فيوم مجيء البشير من الله - عز وجل - إما برضاه وإما بسخطه. ويوم الموقف بين يدي الله الواحد القهار.

أما الليلتان: فليلة مبيت الميت في قبره مع أهل القبور، فلم يبت مثلها. وليلة صبيحتها القيامة، ليس بعدها ليلة» أ. هـ.

قال الشاعر :

فارقت موضع مرقدي يوما ففارقني السكون
القبر أول ليلة بالله قل لي ما يكون(*)

وقال آخر :

أمر على المقابر كل حين ولا أدري بأي الأرض قبري
وأفرح بالغنى إن زاد مالي ولا أبكي على نقصان عمري

وقال الآخر :

إن تبق تفجع بالأحبة كلهم وفناء نفسك لا أبا لك أفجع

نعم قد تزرف العين . . نعم قد تزرف العين على فراق حبيب أو قريب وهذا بحد ذاته مؤلم . . ولكن الأشد من ذلك . . هو بكاء الإنسان على نفسه «لنفسي من نفسي عن الناس شاغل» فيذوب القلب ألمًا وكمداً وتسيل المدامع حرًى . . وتتفطر القلوب من مرارة الألم على نفسه .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموطن هو : هل تستمر هذه الدمعات وهذه الآهات . . وهذه العبرات والحسرات؟

أقول : كل هذه لا تجدي وإنما الذي يجدى إصلاح نفسه وتزكيتها وتقواها وخشيتها ومراقبتها لمولاها .

ومن وصايا لقمان الحكيم لابنه :

(يا بني إن الدنيا قليل ، وعمرك فيها قليل من القليل ، وقد بقي من القليل قليل من قليل) .

يا أخي :

إن حياتك محدودة ، وأنفاسك معدودة ؛ فلاتضيعها بغير عمل ولاتفرط بساعات عمرك الذاهب بغير عوض ، ولا تغتر بما أعطاك ربك وخوَّلك من مال وولد وصحة وعافية ، واستعن بها على طاعته فإنك سوف تفارقها أو تفارقك عن قريب .

قال الشاعر :

تزود من الدنيـــا فـــإنك راحل　　وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع

فـمـــا المال والأهلون إلا ودائع　　ولابد يـومـــــا أن ترد الـودائع

أخي الحبيب تذكر أول ليلة في القبر حين تنزل في قبرك فريداً وحيداً محلقاً بين أطباق الثرى وظلمات اللحود، وتخيل نفسك وأنت تتحسر وتتأسف في ذلك الموقف الرهيب على أوقاتك التي ذهبت سدى إرضاء لفلان وحرصاً على ألا يغضب علان وعصيت الله من أجل فلان وعلان فقل لي بربك في ذلك الموقف العصيب هل سينفعك أحد من هؤلاء المضيعين للأوقات بل هل سيرضى أحد من هؤلاء الذين ضحيت بأوقاتك من أجلهم وأهدرت ساعات عمرك طلباً لرضاهم ولو في سخط الله. قل لي: هل سيرضى أحد منهم أن يظل عند قبرك طوال الليل ليؤنس وحشتك في أول ليلة لك في قبرك؟؟!! كلا والله لن يرضى أحد منهم بذلك بل كل منهم بعد دفنك سوف يرجع إلى زوجاته وأمواله وأولاده وينسونك!! وتبقى أنت أيها المسكين في حفرتك الموحشة لتواجه ذلك الموقف الرهيب لوحدك!! فانتبه لنفسك ولا يلهينك الناس عن تقديم الزاد الصالح لنفسك. فإنك خلقت وحدك وتموت وحدك وتدخل قبرك وحدك، وتبعث وحدك وتحاسب وحدك!!

أخي الحبيب ليت شعري ماذا سيكون حالك إذا وقفت بين يدي جبار السموات والأرض وحاسبك على الأوقات التي أهدرتها من عمرك مجاملة لفلان وحياء من فلان فبأي لسان ستنطق؟!! وبأي حجة ستتكلم؟!!

أخي تذكر أن هؤلاء المضيعين لأوقاتهم وأوقاتك الذين ضحيت بنفسك من أجلهم سيكونون يوم القيامة أعداء لك قال تعالى: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧](*).

(*) (١٢٥) طريقة لحفظ الوقت ص ١٠٠ـ١٠١.

ولله در القائل :

يا واعظ الناس عما أنت فاعله ... يا من يعد عليه العمر بالنفس
احفظ لشيبك من عيب يدنسه ... إن البياض قليل الحمل للدنس
كحامل لثياب الناس يغسلها ... وثوبه غارق في الرجس والنجس
لا تأمنن الموت لحظة ولا نفس ... ولو تمتعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة ... لكل مدرع منها ومترس
تبغي النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس
ركوبك النعش ينسيك الركوب على ... ما كنت تركب من بغلٍ ومن فرسٍ
يوم القيامة لا مال ولا ولد ... وضمة القبر تنسي ليلة العرس

وقال الآخر

انظر لماذا ترى يا أيها الرجل ... وكن على حذر من قبل تنتقل
وقدم الزاد من خير تسر به ... فكل ساكن دار سوف يرتحل
وانظر إلى معشر باتوا على دعة ... فأصبحوا في الثرى رهنا بما عملوا
بنوا فلم ينفع البنيان وادخروا ... مالا فلم يغنهم لما انقضى الأجل
باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... وأودعوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما رحلوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
يا طالما أكلوا يوماً وما شربوا ... فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

وقال آخر :

كأنهم قط ما كانوا ولا وجدوا ... ومات ذكرهم بين الورى ونسوا

وقال الآخر :

لو قيل لقوم ما منا كمو طلبوا ... حياة يوم ليتوبوا فاعلم

ويحك يا نفس الا تيقظ ... ينفع قبل أن تزل قدمي

مضى الزمان في توان وهوى ... فاستدركي ما قد بقي واغتنمي

عبدالله :

الليل والنهار صحبا قوم نوح وعاد وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا ، فأسلمتهم إلى ربهم وقدمت بهم على أعمالهم ، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .

ولله در القائل :

أين أهل الديار من قوم نوح ... ثم عاد من بعدهم وثمود

بينما هم على الأسرة والأنماط ... أفضت إلى التراب الخدود

وأطباء بعدهم لحقوهم ... ضل عنهم سعوطهم واللدود

وصحيح أضحى يعود مريضا ... وهو أدنى ممن يعود

وقال آخر :

أين من جمع الدنيا فأكثر ... أين من حشد الجنود والعسكر

أين الألى شادوا الحصون وجندوا ... فيها الجنود تعززا أين الألى

وذوو المواكب والكتائب والنجائب ... والمراتب والمناصب في العلى

أفناهموا ملك الملوك فأصبحوا ... ما منهمو أحد يحس ولا يرى

وقال الآخر :

كتب الموت على الخلق فكم ... فلّ من جمع وأفنى من دول

أين نمرود وكنعان ومن ... ملك الأرض وولى وعزل

أين من سادوا وشادوا وبنوا ... هلك الكل ولم تغني القلل

أين أرباب الحجى أهل النهى ... أين أهل العلم والقوم الأول

سيعيد الله كلا منهم ... وسيجزي فاعلا ما قد فعل

وقال الآخر :

من كان حين تصيب الشمس جبهته	أو الغبـار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبـقى بشـاشتـه	فـسوف يسكن يوما راغـما جـدثا
في قـعر مظلمـة غبـراء مـوحشـة	يطيل في قـعرها تحت الثرىٰ اللبثا
تجـــهـــزي بجـــهـــاز تبلغين به	يا نفس قبل الردىٰ لم تخلقي عبثا

والقائلِ الآخر يقول :

وليسَ يعلم مـا في القـبـر داخله	إلاَّ الإله وســاكن الأجـــداثِ

نَعم والله :

ظواهر القبور التراب، وبواطنها حسرات وعذاب علىٰ الكافرين والعُصاة، ظواهرها بالتراب والحجارة، وفي بواطنها الدواهي والبليات، فالملك والمملوك والغني والصعلوك تساوت قبورهم في القفر والبيد، وأخرجوا من سعة الدور والغرف والقصور - علىٰ الرغم منهم والقصور - إلىٰ ضيق اللحود، أخذ بهم الآباء والجدود والأطفال في المهود فسكنهم اللحود، وعفَّر وجوههم في التراب والصعّيد، فهم في بحر الأجداث إلىٰ يوم الوعيد.

ولا تقل : ذلك عني بعيد، لا والله، فالليل مهما طال لابد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر، وما هو آت قريب.

ومـا المرء إلا راكب ظهـر عـمـره	علىٰ سـفـر يفنيـه باليـوم والشـهـر
يبـيـت ويضـحي كل يوم وليلة	بعـيـدًا عن الدنيـا قريبًا إلىٰ القبـر

تذكروا الموت وسكراته وكربته وشدته.. تذكروا القبر وظلمته ووحشته وضمته... والحشر ولوعته... والنَّشر وروعته.. والعرض وذلته.. والصراط وزلته.. والميزان وخفته..

يا ســاكن الدنيـــا تأهَّب	وانـتـظر يـوم الـفـــراق
وأعـــدَّ زاداً للـرّحـــيـل	فـــســوف يحـــدىٰ بالرفـــاق

عباد الله:

تذكروا نزع الروح والاحتضار وسكرات الموت ـ ويالها من سكرات ـ إذا يبس اللسان، وبردت القدمان، وارتخت اليدان، وشخصت العينان.

تذكروا إذا أتاكم اليقين، وعرق منكم الجبين، واشتدّ الكرب والأنين.

أيها الناس:

أيقظوا قلوبكم من مراقد الغفلات، وازجروا أنفسكم عن موارد الهلكات، وعجلوا بالتوبة قبل هجوم الممات، وأكثروا من ذكر هاذم اللذات في مواطن الخلوات، وإيّاكم ومظالم العباد فإنها من أكبر الخطيئات، واعلموا أنَّ الدنيا ليست بدار ثبات، وإنما هي دار غرور وشتات.

ولدتك أمّك باكياً مُستصرخاً　　والنَّاس حولك يَضحكون سروراً

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا　　في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

تذكروا إذا صرتم على الأكتافِ محمولين، وعلى الألواح مطروحين، وفي القبور متروكين، وإلى الملكين مسئولين . . .

تذكروا إذا أوحشتكم القبور، وعلاكم التراب، وتقطّعت بكم الأسباب، وحضركم الحساب، وانصرف عنكم الأحباب، وأتاكم الملكان للسؤال والجواب.

أخي المسلم:

اليوم: تجلس فَرِحاً ضاحكاً مسروراً مع زوجتك تلاعب أطفالك، وغداً: تجلس وحيداً فريداً في القبر.

اليوم: تلبس أحسن الثياب باختيارك، وغداً: تُلْبَسُ الأكفان رغم أنفك.

اليوم: تَضحك، وغداً: رُبَّما في القبر تَبكي.

اليوم: تعيش وتنام على السّرير، وغداً: تنام على التراب.

اليوم: تأكل من النِّعم، وغداً: يأكلك الدود.

فيا أخي المسلم:

هل من قلب يخشع؟ هل من عين تدمع؟ هل من أذن تسمع؟ والله لو خوطب بالقرآن جبل من خشية الله تصدع.

فمتىٰ إلىٰ الله تتوب؟ وإلىٰ مولاك ترجع وتؤوب؟[1].

يا من بدنياهُ اشتغل وغره طول الأمل
الموت يأتي فجأة والقبر صندوق العمل

عِباد الله:

تذكروا إذا وضُعتم في القبور، فأوحشكم المكان، ولفظتكم الأوطان، وفارقكم الأهل والإخوان، والصَّاحب والجيران، وانفردتم في محلّ قصير السُّمْكِ علىٰ غير مهاد ولا وساد ولا تقدمه زاد.

تذكروا من كان معكم علىٰ ظهر هذه الدنيا وفارقوكم خاطبوهم قولوا لهم:

أحبابنا فارقتمونا فأوحشت قلوب لنا من بعدكم وديار
فكم تذاكرنا محاسن من مضىٰ فجاءت دموع للفراق غزار
قضوا وقضيتم ثم نقضي فلا بقا لحي وكاسات المنون تدار
وكُنَّا وإيّاكم نزور مقابر ومتم وزرناكم وسوف نُزار

وقال الآخر:

أهل القبور أحبتي بعد الجزالة والسرور
بعد الغضارة والنضارة والتنعم والحبور
بعد المشاهد والمجالس والعساكر والقصور

***

تفكر مشيبك والمآب ودفنك بعد عزك في التراب
إذا وافيت قبرك وأنت فيه تقيم به إلىٰ يوم الحساب
وفي أوصال جسمك حين تبقىٰ مقطعة ممزقة الإهاب

---

(١) (ما يطلبه القراء) لِصالح عبدالله (١/ ٧٠ـ ٧١).

فلولا القبر صار عليك ستراً ... لأنتنت الأباطح والروابي
خلقت من التراب فصرت حيًّا ... وعُلِمت الفصيح من الخطاب
فطلق هذه الدنيا ثلاثًا ... وبادر قبل موتك بالمتاب
نصحتك فاستمع قولي ونصحي ... فمثلك قد يدل على الصواب
خلقنا للممات ولو تركنا ... لضاق بنا الفسيح من الرحاب

وقال الآخر :

سَألتُ الدار تُخبرني ... عن الأحبابِ ما فعلوا
فقالت لي : أناخ القوم ... أيَاماً وقد رحلوا
فُقلت : فأين أطلبهم ... وأيّ منازل نزلوا
فقالت : في القبور وقد ... لقوا والله ما فعلوا

أخي المسلم كأني بك تقول لمن يتولى دفنك من أهل وإخوان :

ضَعوا خدي على لحدي ضَعوه ... ومن عفر التراب فوسّدوه
وشقوا عنه أكفانا رقاقا ... وفي الرّمس البعيد فغيّبوه
فلو أبصرتموه إذا تقضّت ... صبيحة ثالث أنكرتموه
وقد سالت نواظر مقلتيه ... على وجناته وانفضّ فوه
وناداه البلى هذا فلان ... هلموا فانظروا هل تعرفوه
حبيبكم وجاركم المفدّى ... تقادم عهده فنسيتموه

أخي في الله :

اعلم أنَّ كلّ ميت مات فقد قامت قيامته ، لأنَّ القيامة قيامتان :

قيامة صُغرى ، وقيامة كُبرى .

فالقيامة الصُغرى : هي ما تقوم على كل إنسانٍ في خاصته من خروج روحه ، وفراق أهله ، وانقطاعِ سعيه ، وحصوله على عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

والقِيامة الكُبرى : هي التي تعمّ النَّاس وتأخذهم أخذة واحدة .

والدليلُ على أنَّ كلَّ ميت يموت فقد قامت قيامته؛ ما رَوته عَائشَة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالتْ: «كَانَ الأعْرابُ إذا قدِموا عَلَىٰ رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة قائلين: متى الساعة؟

فنظر ﷺ إلى أحدث إنسان منهم فقال: «**إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم**»[1].

ويدل عليه أيضاً: ما رواه مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**»[2].

ولتقومن السَّاعة على الأحياء بَغتة وفجأة، رَوىٰ أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فإذا طَلَعَتْ فَرآهَا النَّاسُ آمنوا أجْمَعُونَ فَذَلِكَ حين** ﴿لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ولَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ: وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلان ثوبهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلا يَتَبَايَعَانه ولا يَطْويَانِه.

ولَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ: وقَدِ انصَرفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِه، فَلا يَطْعَمُهُ.

ولَتَقُومَنَّ الساعة: وهو يليط حوضه، فلا يسقي فيه.

ولَتَقُومَنَّ الساعة: وقد رفع أحدكم أكلته إلى فِيه، فلا يطعمها»[3].

وأخبر ﷺ أن صاحب الصور مستعد للنفخ فيه منذ أن خلقه الله ـ عز وجل ـ قال ﷺ: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ**»[4].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥١١) ومسلم (٢٩٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٦، ١٠٣٦، ١٤١٢، ٣٦٠٩) وغيرها، ومسلم (١٥٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٣١، ٣٢٤٣) وأحمد (١٠٦٥٥) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ وحسنه الترمذي، وصححه الشيخ الألباني.

وماذا بعد القبور؟

بعث، ونشر، وحشر، ثم عرض على الله - عز وجل -، ثم منصرف إما إلى دار الشقاء أو دار النعيم[١].

إخواني: اعلموا أن ليوم القيامة يوم العرض الأكبر - ذلكم اليوم العظيم - يوم يقوم الناس لرب العالمين - أهوالاً عظيمة، وشدائد جسيمة وعجائب ودواهي وطوام، يحار فيها اللبيب، ويندهش الحليم ويحتار، وتنخلع القلوب، وتُذاب الأكباد، وتُنسى الأولاد، وتذهل الحوامل، وتشيب الولدان، ويتقطع الفؤاد، وتزيغ فيه العيون، وتطيش لها العقول، وتبلغ القلوب الحناجر. نعم إنها فظائع وشدائد أهوال وأهوال تصم الآذان وتصك الأسنان وتفزع القلوب وتوجعها وتخشع الأبصار وتزيغها يوم لا تفلح فيه الملامة ولا تنفع الندامة.

الأجسام عارية، والأقدام حافية، والقلوب وجلة واجفة خائفة، والعقول ذاهلة، والأبصارُ خاشعة، وخرج العبد المسكين متحيراً حسيراً كسيراً أسيراً، خرج مبهوتاً مكشوفاً حقيراً ذليلاً، حافياً عارياً، لا ثوب يواريه، خرج إلى جبّار السموات والأرض؛ ليسأله ويُحاسبه عن الأيّام التي مضت، والأعوام التي انقضت.

تصور نفسك وأنت واقف مع الخلائق الذين لا يعلم عددهم إلا الله - عز وجل - إذ نودي باسمك على رؤوس الخلائق مع الأولين والآخرين، تذكر حينئذ ضَعفك وشدة خوفك وانهيار أعصابك وخفقان قلبك..

وقفت بين يدي الملك الحق المبين، الذي كنت تهرب منه، ويدعوك فتصد عنه، وأنت واقف وبيدك صَحيفة، لا تغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصتها،

---

(١) البعث: إحياء الله - عز وجل - الموتى وإخراجهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء.

والنشر: انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

والحشر: سوق الناس وجمعهم إلى أرض المحشر لحسابهم.

والمعاد: الرجوعُ إلى الله - عز وجل - في يوم القيامة.

فتقرأها بلسانٍ كليلٍ وقلبٍ حسيرٍ، وقد عمَّك الحياء والخوف من الله . .

فبالله عليك بأي لسان تُجيبه حين يسألك عن عمرك وشبابك وعملك ومالك؟

وبأي قدم تقف غدا بين يديه؟

وبأي عين ستنظر إليه؟

وبأي قلب ستجيبه؟

ماذا تقول غداً له؟ عندما يقول لك :

يا عبدي! لماذا لم تُجلّني؟ لماذا لم تستحِ مني؟ لماذا لم تراقبني، عبدي! استخففت بنظري إليك. ألم أحسن إليك؟ ألم أنعم عليك؟ . .

تذكروا ذلكم اليوم العظيم العصيب المهول، يوم الفزع الأكبر والرجف والزلزال، والعرض والتوبيخ والخجل، والسؤال والمناقشات .

يوم تُبلى السرائر، وتظهر الجرائم والمخازي والجرائر وتبدو الفضائح والقبائح والمكنونات والمخبآت والأسرار بين الأنام، في ذلك اليوم :

تجلجلت الألسن فلم يدر قائلٌ ما يقول، وخشعت الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همساً، وضعفت الحركات فلا تسمع للأقدام إلا حبياً .

فيا لك من هولٍ تَنهدُ منه الجبال، فما بالك بالرجال؟!

يا لك من خطب تنشق منه السماء، فكيف للأحشاء؟!

تذكَّر يوم تأتي الله فرداً وقد نُصِبَتْ موازين القضاء
وهتكت الستور عن المعاصي وجاءَ الذنبُ مُنكشفُ الغَطاء

أخواني :

تفكروا في الحشر والمعاد، تذكروا حين تقوم الأشهاد، إن في القيامة لحسرات، وإن في الحشر لزفرات، وإن عند الصراط لعثرات، وإن الظلم ظلمات، والكتب تحوي حتى النظرات واللحظات والخطوات والخطرات، وإن الحسرة العظمى عند السيئات، فريق في الجنة يرتقون في الدرجات، وفريق في النار يهبطون الدركات، وما بينك وبين هذا إلا أن يُقال فلان مات، وتقول رب

ارجعون، فيقال: الأمر فات.

أخي في الله:

تفـر من الهـجـيـر وتتـقـيـه ... فـهـلا من جـهنم قـد فـررتا
ولست تطيق أهونهـا عـذابا ... ولو كنت الحـديد بهـا لذبتـا

فيا أيها العاصي:

ـ وكلنا صاحبُ معاصي ـ لنتب إلى الله قبل أن يؤخذ بالنواصي والأقدام، فما أُعدّت النار إلا لأصحاب المعاصي.

وكـيف تنام العين وهي قـريرة ... ولـم تـدرِ بـأيٍّ المحـلـين تـنـزل

ولله در القائل:

لله يوم تقـشـعـر جلودهم ... وتشـيب منه ذوائب الأطفـال
يوم النوازل والزلازل والحـوا ... مل فـيـه إذ يقـذفن بالأحـمـال
يوم التـغـابن والتـبـاين والتنا ... زل والأمـور عظيـمـة الأهوال

فيا عبدالله:

لا تحـقـرن من الذنوبِ صَـغـيـراً ... إن الصـغـيـر غـداً يعـود كـبيـراً
إنّ الصـغـيـر وإن تقـادم عـهـده ... عند الإله مـسطرٌ تسطيـراً
فـازجـر هواك عن البطالة لا تكن ... صَعب القياد وشـمـرن تشـمـيـراً
إن المحـب إذا أحـب إلـهـه ... طار الفـؤاد وألهم التـفـكيـرا

يا عبدالله:

تذكر قول الله ـ عز وجل ـ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٥].

يوم تشقق السماء بالغمام، ويطول القيام، ، وتتعب الأقدام، وتعرى الأجسام.

يوم الحسرة والندامة والفضيحة، يوم التناد، يوم يُنادي المنادي على رؤوس الأشهاد: (لقد شقي فلان وسعد فلان، هذه غدرة فُلان ابن فلان).

ويُنادي المنادي للعرض على الله ـ عز وجل ـ: (أين فلان ابن فلان؟، هلم إلى

العرض على الله ـ عز وجل ـ) في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

يقول بعض السلف : «صرت في صلب أبي وحدي ، ثم إلى بطن أمي وحدي ، ثم أخرج إلى الدنيا وحدي ، ثم أموت وحدي ، ثم أقبر وحدي ، ثم أعرَض على ا لله ـ عز وجل ـ وحدي» أ . هـ .

قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ : «ما ظنُّك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتَّى إذا انقطعت أعناقهم عطشًا واحترقت أجوافهم جوعًا انصرف بهم ـ يقصد العصاة والمجرمين ـ إلى النَّار فسقوا من عينٍ آنيةٍ قد آن حرُّها واشتد لفحها» .

إنه يوم تنتهي عنده الأيام ، وتتبدد عنده الأوهام ، وتجتمع فيه الخصوم ، وينصف الظالم من المظلوم ، وتنشر فيه الدواوين ، وتنصب الموازين ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

ينصب الميزان لوزن أعمال العباد ، والوزن لإظهار مقاديرها ، ليكون الجزاء بحسبها ، وفي الحديث : **«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**(١) .

وفي الحديث : **«يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما ، فيقول : يا رب سل هذا فيم قتلني»**(٢) .

وجاء في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : أن رسول الله ﷺ قال : **«أتَدْرُونَ مَن الْمُفْلسُ»؟** قالُوا : يا رسول الله ، الْمُفْلسُ فينا مَنْ لا درْهَمَ لهُ ولا مَتَاعَ . فَقَالَ ﷺ : **«إنَّ الْمُفْلسَ مَنْ أمَّتِي : من يَأتِي يَوْمَ الْقِيَامَة بِصلاةٍ ، وزكَاةٍ ، وصيامٍ ، وحجٍ ، ويَأتي وقدْ شَتَمَ هَذَا ، وقَذفَ هَذَا ، وأكلَ مَالَ هذا ، وسَفَكَ دمَ هَذَا ، وضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فإنْ فَنِيتْ حَسَنَاتُهُ قبْلَ أنْ يُقْضَىٰ ما عَلَيْهِ**

---

(١) أخرجه مُسلم برقم (٢٥٨٢) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٢٩) والنسائي (٣٩٩٩ ، ٤٠٠٠) وصَحَّحه الشيخ الألباني .

أخذَ منْ خطَايَاهُمْ فَطرِحَتْ عَلَيْهِ ثمَّ طُرِحَ فِي النَّار»(١).

ورَوىٰ أبو سَعيد الخُدْري ـ رضي الله عنهُ ـ أنَّ رسُولُ الله ﷺ قال: **«يَخلُصُ الْمُؤْمِنُونَ منَ النَّار، فَيُحْبَسُونَ علىٰ قَنطَرةٍ بيْنَ الْجنَّة وَالنَّار، فَيُقصُّ لِبَعْضِهِمْ مَنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بيْنَهُمْ في الدُّنْيَا، حتَّىٰ إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجنَّة، فوَ الذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه، لأحَدُهُمْ أهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»**(٢).

وقال رسُول الله ﷺ: **«ألا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهداً أو انْتَقَصَهُ أوْ كلفه فَوْقَ طاقته أوْ أخَذَ مِنْهُ شَيْئاً بِغَيْرِ طِيب نَفْسٍ فأنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَة»**(٣).

وتلا رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقيل له وما أخبارها؟ فقال ﷺ: **«أن تشهد علىٰ كل عبد وكل أمه بما عمل علىٰ ظهرها تقول: عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها»**(٤).

وقال الحَسَن ـ رحمه الله ـ: «إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله. فيقول: والله ما أعرفك. فيقول: أنت أخذت طينة من حائطي. وآخرٌ يقول: أنت أخذت خيطاً من ثِيابي».

فهذا وأمثاله قطع قلوب الخائفين). أ. هـ.

وقال إبراهيمم التميمي ـ رحمه الله ـ: (شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله عز وجل).

فمثل نفسك إذ وثب عليك خصماؤك(٥)، وهجم عليك طالبوك، وأحاطوا بك، ومدوا أيديهم إليك، فهذا يأخذ بيدك وهذا بشعرك، وهذا بما أمكنه مما أذن

---

(١) أخرجه مُسلم (٢٥٨١) والترمذي (٢٤١٨).

(٢) أخرجه البُخاري (٦٥٣٥، ٢٤٤٠) وأحمد (١٠٧١١، ١١١٥٤) ومُسلم (٢/ ١٤٩ـ ١٥٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢) والبيهقي (٩/ ٢٠٥).

(٤) الترمذي (٢٤٢٩).

(٥) وانظر: رسالة بعنوان [هؤلاء هم خصماؤك غداً] للشيخ عبد الملك القاسم ـ حفظه الله ـ.

الله ـ عز وجل ـ أن يأخذه منك .

فواحد يقول : يا رب هذا ضربني . وثاني يقول : هذا شتمني . وثالث يقول : هذا اغتابني . . هذا غصبني . . هذا احتقرني . . هذا ظلمني حقي . . هذا قتلني . . هذا عاملني فغشَّني ولم ينصحني . . هذا رآني مظلوماً وقدر على نصري فلم ينصرني . . هذا علم أني جائع وكان قادراً على أن يطعمني فلم يطعمني . . » .

وتسأل : كيف كانت معاملتك مع النَّاس ، كيف كانت معاشرتك لهم ، فبينما أنت كذلك لا تدري ما تقول ، ولا تدري ما تعمل ، ولا أين تفر ، ولا كيف تتخلص ، وقد أبهتك الأمر وأدهشك الحال إذ سمعت نداء المنادي ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٧] .

فلا تسأل عن انخلاع قلبك ، واضطرام صدرك ، وقلة أنصارك ، وعدم المدافعين عنك ، فما شئت من ضلوع تحترق ، وأكباد تخترق ، وأحشاء تصطفق ، وهموم تنبعث عليك وتندفق .

وقد علمت أن الأداء عن نفسك هناك ليسَ بالدنيا ، وإنما هي حسناتك التي كسبتها في الدنيا ، إن كانت قد قُبلت منك تُعطى منك لخصمائك وتدفع لطالبيك ، وإن لم تكن لك حسنات أُخذ من سيئاتهم فحملت عليك ، وأُلقيت على كاهلك ، ولعلك قد جرَّأتْ مُسلماً أو حملته على ارتكاب خطيئةٍ أو كنت له سبباً في فعل سيئةٍ واعتقاد بدعة ، فيجمع ذلك كله لك ويُناطُ بك ويُحمل على ظهرك ، قال ـ عز وجل ـ : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] .

يقول ـ عز وجل ـ : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ : ٤٠] .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ [النازعات : ٣٥] .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : ٢٣ـ٢٤] .

ويقـول ـ عـز وجل ـ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ [مريم: ٣٩].

إنه ذلك اليوم الموعود، فيه يشيب المولود، ويشتد العطش، ويكثر العرق، وتتغيّر الألوان، ويشتد الزحام، وتزفر النيران، وتُفتح أبواب الجنان، وتقسم الكتب بالشمائل والأيمان.

إذا زلزلت الأرض زلزالها، ووضعت ذوات الأحمال حملها، وذهلت الرّضّع أولادها، وجاءت القيامة وأهوالها، وكثر البكاء والصّياح، وارتفع الصراخ والنواح، وجيء بجهنّم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، وهي سوداء مظلمة مدلهمة، اللهم أجرنا من النار.

ولله در القائل:

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها	**لكان رسول الله حيا يخلد**
أترقد يا مغرور والنار توقد	**فلا حرها يُطفى ولا الجمر يخمد**
فيا راكب العصيان ويحك خلها	**فتحشر عطشاناً ووجهك أسود**
فكم بين مشغول بطاعة ربه	**وآخر بالذنب الثقيل مقيد**
فهذا سعيد في الجنان منعم	**ذاك شقي في الجحيم مخلد**
كأني بنفسي في القيامة واقفٌ	**وقد فاض دمعي والفرائص ترعد**
وقد نصب الميزان للفصل والقضاء	**وقد قام خير العالمين محمد**

يا عبدالله:

إنه ليوم عظيم الشأن، الأم إلى ربها تدعى، والخلائق تحشر إلى الموقف وتسعى، والفرائص ترعد من هول ذلك اليوم، والعيون تذرف دمعاً، والقلوب تتصدع من الحساب صدعا، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا، إنه يوم النوازل والزلازل، وذهول المراضع ووضع الحوامل، ويكفي من أهوال القيامة وكرباتها وشدائدها وفظائعها وأحوالها أن يشيب رأس الطفل من هول ذلك اليوم، وصدق الله ـ عز وجل ـ حيث قال: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾

[المزمل: ١٧] الله أكبر، الطفل الصغير الرضيع الذي لم يجر عليه قلم التكليف، ولم يعمل أي عمل يشيب رأسه من هول ذلك اليوم.

وقد شاب الصغير بغير ذنب	فكيف تكون حال المجرمينا
وإذا الصبي بأمه متعلق	خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله	كيف المقيم على الذنوب دهور
يوم القيامة بالشدة هوله	تبيض منه مفارق الولدان
يوم القيامة لو علمت بهوله	لفررت من أهل ومن أوطان

وعن أمِّ المؤمنين عَائشة ـ رَضِي الله عنها ـ؛ أنها قَالتْ: سَمعْتُ رسُول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاس يَوْمَ الْقِيامَة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا» قَلْتُ: يا رَسُولَ الله النِّسَاءُ والرِّجَالُ جَميعاً يَنْظُر بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ! قال ﷺ: «يَا عَائشةُ الأمْرُ أشَدُّ مِنْ أنْ يَنْظُر بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ»[1].

ولله در القائل:

أَبَت نفسي تتوب فما احتيالي	إذا برزَ العباد لِذي الجلالِ
وقاموا من قبورهم سُكارىٰ	بأوزارٍ كأمثالِ الجبالِ
وقد نصب الصراط لكي يجوزوا	فمنهم من يكبّ على الشّمالِ
ومنهم من يسير لدار عدن	تلقاه العرائس الغوالي
يقول له المهيمن: يا وليي	غفرت لك الذنوب فلا تُبالي

نعم يا لها من مواقف وأهوال وخطوب وشدائد ومخاوف وكروب ومحزنات، في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.

ومن تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب، الذي تشده الناس وتشد أبصارهم، وتملك عليهم نفوسهم، وتزلزل قلوبهم فالأرض تُزلزل، والجبال تُسير وتُنسف، والبحار تُسجر وتُفجرْ، والسماء تنشق وتمور، والشمس تُكور وتذهب، والقمر يخسف، والنجوم تنكدر ضؤوها وينفرط عقدها.

---

(١) أخرجه البُخاري (٦٥٢٧) ومُسلم (٢٨٥٩) واللفظ له.

ألا إنَّ الخلق أجمع لعلى موعدٍ يحضرونه سوياً، ويرونه سوياً، ويسمعون ما فيه سوياً، في زمان واحد، ومكان واحد، يقف فيه الخلائق أجمعون، ذكرهم وأنثاهم، شريفهم ووضيعهم، غنيهم وفقيرهم، موعدٌ زماني ومكاني لابد من حضوره، لا مفر لأحد منه ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

يوم تتغير فيه حياة الناس، بسننها ومعالمها، ويشهدون حوادث لم يروها أو يسمعوها من قبل، ذلك اليوم يوم الدين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩].

يوم أخبر الله ـ عز وجل ـ عنه بأبلغ وصفٍ وأتم بيان؛ ليكون النَّاس على بينة مما يحدث فيه، أكثر الله من ذكر أحداثه تعظيماً لشأنه.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾ [طه: ١٠٢].

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿يوم تمور السماء مورا ⑨ وتسير الجبال سيرا﴾ [الطور: ٩-١٠].

﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون ⑧⑧ إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين﴾ [النمل: ٨٧].

﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾ [غافر: ١٦].

﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [غافر: ٥٢].

﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون﴾ [الدخان: ٤١].

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ [الانفطار: ١٩].

﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ [المطففين: ٦].

﴿يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ [إبراهيم: ٤٢].

معاشر المسلمين:

في ذلك اليوم تتغير سنن كونية اعتادها الناس في حياتهم، تشرئب الأعناق وتشخص الأبصار، وتفزع النفوس من هول المطلع، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم

بسكارىٰ، ولكن عذاب الله شديد.

في ذلك اليوم تزول الطبقيات بين المجتمعات، وتتلاشىٰ تلك الموازين التي يوزن الناس بها في الدنيا.

في ذلك اليوم لا نسب فيه ولا حسب ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

في ذلك اليوم لا رحم ولا قرابة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

في ذلك اليوم لا مال ولا ولد: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

معاشر المسلمين:

في ذلك اليوم الكل مشغول بنفسه، تدنو الشمس من الخلائق ويتفاوت الناس في عرقهم، فمنهم من يبلغ عرقه إلىٰ كعبيه ومنهم إلىٰ ركبتيه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً.

ذلك اليوم تتعالىٰ الصيحات، وتتوالىٰ الزفرات، وتصخب ألسنة الندم، وترتفع منها صيحات الندامة والحسرة، فمن قائل: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ومن قائل ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وقائل يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

وهكذا تتوالىٰ صيحات التمنيات: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٨].

وقائل يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

وقائل يقول: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقائل يقول: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقائل يقول: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: ٥٢].

يوم يعض الظالمون على أيديهم وتسود وجوهم ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

مشاهد ومواقف عظيمة، ودعاء الأنبياء فيها: (اللهم سلم سلم) فحينئذ يقول الشيخ الكبير: واشيبتاه.

ويقول الكهل الخطير: واخجلتاه.

ويقول المذنب المسيء: واخيبتاه.

ويقول الحدث الصغير واحسرتاه.

وخجلوا من مولاهم وأشفقوا، وغشيتهم الندامة فلم ينطقوا، وداهمهم من الأهوال ما ودوا معه أنهم لم يخلقوا، ووقفوا على عمل نكس الرؤوس فأطرقوا، فإن كنت غافلاً ساهياً في دنياك عن أوامر مولاك معرضا، فيا لها من حسرة وندامة وعثرة لا تقال.

يا لضياع العمر، وقاصمة الظهر، وشقاء الدهر.

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥].

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣].

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٥-١٩].

ويبدأ ذلكم اليوم بالنفخ في الصور، حين ينفخ إسرافيل نفخة الفزع والصعق، فحينئذ يفزع الناس ويصعقون فيموت كل مخلوق ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

[القصص: ٨٨] ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

فيمكثون أربعين فينزل من السماء فينبتون كما ينبت البقل وليس في الإنسان شيء إلا بلي إلا عظم واحد هو عجب الذنب[1]، فمنه يركب الخلق يوم القيامة.

فحينئذ ينفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور فيها يحيى الله - عز وجل - كل الأموات ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥٣].

ثم بعد ذلك يحشر الله - عز وجل - الخلق جميعاً: الإنس والجن والملائكة حتى الوحوش إلى الموقف العظيم ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

فيا لك من هول ما أعظمه، ومن كرب ما أشده، ومن خطب ما أبشعه، وإياك أن تستبطيء هذا اليوم وأن تستبعده، فما سيرك إليه ببطيء، ولا هو منك ببعيد وإن طال المدى وامتدت الغاية، فكل آتٍ قريب، وكل ما يكون سيكون، قال - عز وجل -: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥].

من أحوال الناس يوم القيامة: من أحوال الأتقياء:

قال ﷺ: **«سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»**[2].

(١) المسمى (العصعص).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٠٦)، واللفظ له، ومسلم (١٠٣١) والترمذي (٢٣٩١) والنسائي (٥٣٨٠) وأحمد (٩٣٧٣) ومالك في الموطأ (١٧٧٧).

وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»(١).

وقال ﷺ: «من كظم غيظاً - وهو يستطيع أن ينفذه - دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور»(٢).

وقال ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»(٣).

وقال ﷺ: «من شاب شيبة في سبيل الله، كانت له نورا يوم القيامة» وفي لفظ «من شاب شيبة في الإسلام...»(٤) فحذاري حذاري من أن تصبغ لحيتك بالسواد(٥).

وقال ﷺ: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فمن

---

(١) أخرجه: مسلم (٢٦٩٩) واللفظ له، والترمذي (١٤٢٥، ١٩٣٠، ٢٦٤٦، ٢٩٤٥) وأبو داود (١٤٥٥، ٤٩٤٦) وابن ماجه (٢٢٥، ٢٤١٧، ٢٥٤٤) وأحمد ٢/ ٢٥٢، ٢٧٤، ٣٢٥، ٤٠٦، ٥٠٠، ٥١٤، ٥٢٢) والدارمي (٣٤٤) وابن حبان (٥٣٤، ٥٠٤٥) والبغوي (١٢٧) وبعضهم يختصره.

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٠٢١، ٢٤٩٣) واللفظ له، وأبو داود (٤٧٧٧) وابن ماجه (٤١٨٦) وأحمد (٣/ ٤٣٨، ٤٤٠) وأبو يعلي (١٤٩٧) حسنه الألباني في صحيح أبي داود وصحيح ابن ماجه. وصحيح الجامع (٦٣٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٧) واللفظ له، وابن ماجه (٧٢٥) وأحمد (٤/ ٩٥، ٩٨) وعبد بن حميد (٤١٨) وابن حبان (١٦٦٩).

(٤) أخرجه: الترمذي (١٦٣٥) والنسايي (٣١٤٥، ٣١٤٢) من حديث عمرو بن عبسة - رضي الله عنه - وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح غريب) أ. هـ. وصححه الألباني صحيح الترمذي وصحيح النسائي. وأخرجه الترمذي (١٦٣٤) والنسائي (٣١٤٤) من حديث كعب بن مرة - رضي الله عنه - وصححه الألباني صحيح الترمذي وصحيح النسائي. وانظر صحيح الجامع للعلامة الألباني - رحمه الله - رقم (٥/ ٦١٨٣).

(٥) راجع: كتاب الشيخ فريح البهلال (إتحاف الأمجاد باجتناب تغيير الشيب بالسواد) قدم له سماحة الشيخ الوالد عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - رحمة واسعة.

استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»[١].

وقال ﷺ: «كان الرجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه؛ لعل الله - عز وجل - أن يتجاوز عنا. قال: فلقي الله - عز وجل - فتجاوز عنه»[٢]. وقال ﷺ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله»[٣] وقال ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه»[٤].

وقال ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[٥].

من أحوالُ عُصاة الموحّدين:

* حال من ترك الصلاة: كافر، والكافر خالد مخلد في النار، يصيبه الذل والهوان والخزي والعار.

ومن تهاون بها وتكاسل عنها، لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة يوم القيامة، وكان يوم القيامة مع فرعون وقارون وهامان وأبي بن خلف.

* مانع الزكاة: قال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها إلا كان له يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩) والنسائي (١٥٠) وابن ماجه (٤٣٠٦) ومالك (٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨٠) ومسلم (١٥٦٢).

(٣) مسلم (٤/ ٢٣٠٢) ورقمه (٣٠٠٦).

(٤) أخرجه: الترمذي (١٦٦٣) وابن ماجه (٢٧٩٩) وأحمد (١٦٧٣٠) من حديث المقدام بن معدي كرب - رضي الله عنه - قال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح غريب) ووافقه الألباني في صحيح الترمذي وابن ماجه.

(٥) مسلم (٤/ ١٩٨٨) ورقمه (٢٥٦٦).

جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»(١).

* آكل الربا: قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] يُبعث يوم القيامة مجنوناً مخبولاً كلما قام سقط(*).

* قال ﷺ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ في صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَيُسَاقُونَ إلى سِجْنٍ في جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَس تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»(٢).

* قال ﷺ: «من اسْتَمَعَ إلى حديث قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ صُبَّ في أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

* «إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم»(٤). وقال ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصرون»(٥).

قال ﷺ: «من صور صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»(٦). أي صورة لها ظل أو لا شمسية أو فوتوغرافية.

* قال ﷺ: «كل مسكر حرام إن على الله - عز وجل - عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال. قالوا: يا رسول الله وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار أو

---

(١) متفق عليه البخاري (٣/ ٢١٢) مسلم (٩٨٧).

(*) وفي الحديث ﷺ: «الربا سبعون باباً أهونها أن ينكح الرجل أمه» أما يكفي شناعة وبشاعة وخبثاً وخزياً لمن يتعامل بالربا أن يتركه ويتوب إلى الله.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) وأحمد ٢/ ١٧٩ (٦٦٣٩) والحميدي (٥٩٨) والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧) وقال الترمذي: (هذا حديثٌ صحيحٌ) وفي بعض النسخ (حسن) وحسَّنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٤٢) والترمذي (١٧٥١).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥١) ومسلم (٢١٠٨).

(٥) البخاري (١٠/ ٣٢١) مسلم (٢١٠٩).

(٦) أخرجه البخاري (٥٩٦٣) ومسلم (٢١١٠).

عصارة أهل النار»[١].

* قال ﷺ: **«الذي يشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»**[٢] وفي رواية **«والذهب»**.

وفي رواية: **«لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا»**[٣].

* قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

والمعنى: أن من يأكل أموال اليتامى بلا سبب شرعي ومن غير حق فإنما يأكل ناراً تتأجج في بطنه يوم القيامة

* قال ﷺ: **«من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»**[٤].

* قال ﷺ: **«من أخذ شِبْراً من الأرض ظُلماً فإنَّه يُطوقه يوم القيامة من سبع أرضين»**[٥].

* قال ﷺ: **«صِنْفَانِ مِنْ أهلِ النَّارِ لَمْ أرهُما: قومٌ معهُمْ سِيَاطٌ كأذنابِ البقرِ يضربُونَ بِها النَّاسَ، ونِسَاءٌ كاسِياتٌ عَارِياتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ، رُءوسُهُنَّ كأسْنِمةِ البُخْتِ المائِلةِ، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ ولا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجدُ مِنْ مَسِيرةِ كَذَا وكَذَا»**[٦].

* قال ﷺ: **«مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[٧].

---

(١) أخرجه: مسلم (٢٠٠٢) والنسائي (٥٧٠٩) وأحمد (١٤٤٦٦).

(٢) أخرجه: البخاري (٥٦٣٤) ومسلم (٢٠٦٥).

(٣) أخرجه: مسلم (٢٠٦٧).

(٤) أخرجه: البُخاري (٢٤٥٣) ومسلم (١٦١٢).

(٥) أخرجه: البخاري (٣١٩٨) ومسلم (١٦١٠).

(٦) أخرجه: مُسلم (٢١٢٨) وأحمد (٨٤٥١، ٩٣٨٨) ومالك (١٦٩٤).

(٧) أخرجه: أبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦١، ٢٦٦) وأحمد (٢/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٩، ٥٠٨) وابن حبان (٩٥) والحاكم (١/ ١٠١) والبغوي (١٤٠) =

* قال ﷺ: «ثلاثة لا يُكَلِّمُهُمُ الله، ولا يَنْظُرُ إليهِمْ، ولا يُزكِّيهِمْ، ولَهُمْ عَذَابٌ أليم: رجُلٌ على فضلِ ماءٍ بطريق يمنع منه ابن السبيل، ورجلٌ بَايع رجُلاً لا يُبَايعُهُ إلا للدُّنيا فإنْ أعْطَاهُ ما يُريدُ وَفَى له وإلا لَمْ يفِ لهُ، ورجُلٌ سَاوَمَ رجُلاً بسلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ بالله لقدْ أعْطَى بها كذا وكذا فأخذها»[1].

قال ﷺ: «ثلاثة لا يُكلِّمُهُمُ الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنَّان الذي لا يُعْطِي شَيْئاً إلا منَّه، والمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الفَاجِرِ، والْمُسبِلُ إزاره»[2].

وقال ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله -عز وجل- إليهم يوم القيامة: الْعَاقُّ لوالدَيْه. والمرأةُ الْمُتَرَجِّلَةُ. والدَّيُّوثُ. وثلاثة لا يَدْخُلُونَ الجنة: العاقُّ لِوالدَيْه. والْمُدْمِنُ عَلَى الخَمْرِ. والْمَنَّانُ بِمَا أعْطَى»[3]. والديوث هو الذي يقر الخبث في أهله بمعنى يرى المنكر في أهله فيسكت ولا يغار.

وقال ﷺ: «ثلاثة لا يُكلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القيامة ولا يُزكِّيهِم ولا يَنْظرُ إليهمْ ولهم عذاب أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذابٌ. وعائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»[4].

* وقال ﷺ: «مَن اقتطع حقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِه، فَقَدْ أوْجَبَ الله لهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ» فقال لهُ رجلٌ: وإن كَانَ شَيئاً يَسيراً يا رسُولَ الله. قال: «وإنْ كان قضيباً مِنْ أرَاكٍ»[5].

= وحسّنه الترمذي، وصَحّحه الألباني في صَحيح الترمذي، وصَحح في صَحيح ابن ماجه حديث (٢٦٦) وحسّن (٢٦١)، وقال في صَحيح أبي داود: (حسن صَحيح).

(١) أخرجه: البخاري (٢٦٧٢) ومسلم (١٠٨).

(٢) أخرجه: مسلم (١٠٦) والترمذي (١٢١١) والنسائي (٢٥٦٣، ٢٥٦٤، ٥٣٣٣) وأبو داود (٤٠٨٧) وابن ماجه (٢٢٠٨) والدارمي (٢٦٠٥).

(٣) أخرجه النّسائي (٢٥٦٢) وأحمد (٦٠٧٨) صَححه الشيخ الألباني في صَحيح النسائي بقوله (حسن صَحيح).

(٤) أخرجه مسلم (١٠٧) وأحمد (٧٣٩٣).

(٥) أخرجه مسلم (١٣٧) والنسائي (٥٤١٩) وابن ماجه (٢٣٢٤) ومالك (١٤٣٥) والدارمي (٢٦٠٣).

* قال ﷺ: «**كَانَ فِيمنْ كَانَ قبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ فَجَزِعَ، فأخذَ سِكِّيناً فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رقأ الدَّمُ حَتَّىٰ مَاتَ، قال الله ـ عز وجل ـ: «بَادَرَنِي عَبْدِي بِنفسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»[1]. وهذه عقوبة الانتحار.

* قال ﷺ: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربان من قطران ودرع من جرب**»[2].

المعنىٰ تكسىٰ بالرصاص المذاب ويسلط علىٰ أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع وهو القميص.

* وقال ﷺ: «**من ولي من أمور المسلمين شيئاً فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم وفاقتهم احتجب الله عنه يوم القيامة..**»[3].

* وقال ﷺ: «**من كان له امرأتان فمال إلىٰ إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**» وفي لفظ «**ساقط**»[4].

وفي ذلكم الموقف العظيم يكرم الله ـ عز وجل ـ نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين بالحوض. يقول عنه ﷺ: «**حوضي من كذا إلىٰ كذا، فيه الآنية عدد النجوم، وأطيب ريحاً من المسك، وأحلىٰ من العسل، وأبرد من الثلج، وأبيض من اللبن، من شرب منه لم يظمأ أبدا ومن لم يشرب لم يروىٰ أبدا**»[5].

يسقىٰ بها السني أعظم شربة ويذاد عنه كل منافق فتان

لا يشرب منه إلا من كان علىٰ مثل ما كان رسول الله ﷺ وأصحابه، ويذاد عنه المخالف لأهل السنة والجماعة، يقول ﷺ: «**إني علىٰ الحوض حتىٰ أنظر من يرد علي منكم، وإنه سيؤخذ ناس دوني فأقول يا رب مني ومن أمتي فيقال هل شعرت**

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٤٦٣) ومسلم (١١٣).

(٢) مسلم (٩٣٤).

(٣) أبو داود وابن ماجه والحاكم.

(٤) أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

(٥) رواه البزار والطبراني في الأوسط. ر: مجمع الزوائد (١٠/ ٣٩٤).

ما عملوا بعدك والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم»[١] .

وفي حديث آخر : **«فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾** [المائدة : ١١٧] **»**[٢] .

وفي حديث آخر : **«فيقال له : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فيقول ﷺ : سحقا سحقا لمن غير بعدي»**[٣] فعليك يا عبدالله بالسنة وإياك ومحدثات الأمور ، وإذا أردت يا عبدالله أن تكون ممن يرد حوض الرسول ﷺ فاقتف أثره وتمسك بسنته .

فإذا فرغ الله تبارك وتعالىٰ من محاسبة عباده ووزنت الأعمال وظهرت النتائج لم يبق إلا أن ينال كل جزاءه علىٰ حسب عمله ، إن كان صالحاً فمآله إلىٰ الجنة ، وإن كان غير ذلك فمآله إلىٰ النار ، وليس هناك طريق إلىٰ الجنة إلا طريق جهنم ، فلا يستطيع أحد أن يصل إلىٰ الجنة إلا بالمرور فوق الصراط الذي نصب علىٰ ظهراني جهنم ، وما أدراك ما الصراط ، مدحضة مزلة علىٰ جانبيه خطاطيف وكلاليب يجوزه الناس علىٰ قدر أعمالهم **«فيمر أولكم كمر البرق ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم علىٰ الصراط يقول رب سلم سلم ، حتىٰ تعجز أعمال العباد ، حتىٰ يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً . وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ، ومكردس في النار»** [قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ بعد روايته الحديث : «والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً»[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٣) ومسلم (٢٢٩٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر .

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٥) ومسلم (٢٨٦٠) .

(٣) قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «سحقاً بعدا . يقال : سحيق بعيد سحقه ، وأسحقه أبعده» أخرجه البخاري (٦٥٨٥) ومسلم (٢٢٩١) .

(٤) أخرجه مسلم : ١٩٥ .

قال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: «بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف»[١].

والله تبارك تعالىٰ يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فالمقصود بالورود هنا: العبور والمرور علىٰ الصراط، فأنت من الورود علىٰ يقين، ومن النجاة في شك، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه.

فيا ابن آدم: سل نفسك هل أنت من المار السالم؟ أم من المار المخدوش؟ أم أنك من الذين يكبون علىٰ وجوههم في النار؟.

فيا ابن آدم: سل نفسك: هل أديت الأمانة؟ هل وصلت الرحم؟ إن الأمانة والرحم تقومان جنبتي الصراط يوم القيامة. فأدِ الأمانة وصِلْ الأرحام، وتوهم نفسك إذا صرت علىٰ الصراط، ونظرت إلىٰ جهنم تحتك سوداء مظلمة قد لظىٰ سعيرها وعلا لهيبها، وأنت تمشي أحياناً وتزحف أخرىٰ، فتفكر الآن فيما يحل بك من الفزع إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك علىٰ سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي علىٰ الصراط مع ضعف حالك واضطراب فؤادك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك من المشي علىٰ بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدىٰ رجليك فأحسست بحدته واضطررت إلىٰ أن ترفع القدم الثاني، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فتسفل إلىٰ جهنم رؤوسهم وتعلوا أرجلهم، فيا له من منظر ما أفظعه!؟ ومرتقىٰ ما أصبعه!؟ ومجاز ما أضيقه!؟ فاللهم سلم سلم[٢].

تذكر قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦] يقفون بين يدي الرب تبارك وتعالىٰ

---

(١) مسلم: ١٨٣.

(٢) رحلة في رحاب اليوم الآخر لعبد الله الخلفي (ص ١١٥).

للحساب فيقررهم بأعمالهم ويجازيهم بأفعالهم، ثم يصدرون من بين يديه إلى دار النعيم أو دار جحيم ولله در القائل:

الموت باب وكل الناس داخله	**فليت شعري بعد الموت ما الدار**
الدار جنة عدن إن عملت بما	**يرضي الإله وإن فرطت فالنار**
هما محلان ما للناس غيرهما	**فانظر لنفسك ماذا أنت تختار**

وقبل الكلام عن الدار الأولى وهي الجنة أقول:

واعجباً ثم واعجباً ثم واعجباً واعجبا كيف يأنس ويهنأ بعيش دونها والله وبالله وتالله لو لم يكن بها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضروراته والتي من طبعها الكدر كما قال الشاعر يتحدث عن الدنيا:

طبعت على كدر وأنت تريدها	**صفواً من الأقذار والأكدار**

هذه الدنيا.

* * *

الجنة

الجنة:

أما الجنة فهي دار النعيم الأبدي والفوز العظيم السرمدي التي أعدها الله لعباده الصالحين، وجعل فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، دار لا يموت سكانها ولا يخرب بنيانها ولا يهرم شبابها ولا يتغير حسنها وإحسانها، هواؤها النسيم وماؤها التسنيم، يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم كل حين، دعواهم فيها: سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم: أن الحمد لله رب العالمين.

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة والأشجار المتدلية. والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة. وتزاور الإخوان وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم. وتمتع الأرواح بقربه والعيون برؤيته والأسماع بخطابه الذي ينسيهم كل نعيم وسرور ولولا الثبات من الله لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، فلله ما أحلى ذلك النعيم وما أعلى ما أنا لهم الرب الكريم، وما حصل لهم من كل خير وبهجة لايصفه الواصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات ولهذا قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١١٢].

من ذا الذي يقدر على وصف نعيم الجنة وهو نعيم مقيم يفوق كل تصوراتنا وتقديراتنا ويتعدى تمنياتنا وتوقعاتنا، ففيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر. من ذا الذي يقوى على وصف نعيمهم

وسرورهم، أم من ذا الذي يحسن التعبير عن عيشهم وسعادتهم، والله تبارك وتعالىٰ مكرمهم يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكًا كَبِيراً﴾ [الإنسان: ٢٠].

إن نعيم جنات دار النعيم يعظم يا أخي عن الوصف، ويقصر دونه البيان والكلام والضبط والحصر، وكيف يحصر ما لا يفنىٰ ولا يبيد، وكيف يوصف ما لا يدرك كنهه ولا يعرف أوله من آخره.

كيف يقدر قدر دار غرسها الله تبارك وتعالىٰ بيده، وجعلها مقراً لأحبابه وملأها من رحمته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، ومقامها بالمقام الكريم، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص(١).

ماذا أقول في وصفها وقد طاب ثمرها واطردت أنهارها ،ودام نعيمها وبهجتها وسرورها، وقرّت أعين أهلها فيها وهم في غرفها وقصورها ومقاصيرها ودرجاتها ولذاتها وطربها، كل ذلك فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، بناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها يَنعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت، لا تبلىٰ ثيابهم ولا يَفنىٰ شبابهم.

لا يَبُولَون، ولا يَتَغوَّطُونَ، ولا يمتخِطُونَ، ولا يتفلُون، أمْشَاطُهُمْ الذهبُ، ورَشْحُهُمْ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمْ الألوَّةُ.

أما أزواجُهُمْ الحُورُ الْعِينُ: فحورها يستغرق حسنهن الباهر كل لب، ويسبي جمالهن كل عقل ويستهوي كل قلب بل يحار الطرف منها «لِكلِّ امْرِيءٍ زَوْجَتَانِ من الحُورِ العينِ، يُرىٰ مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وراَءِ الْعَظْمِ واللحْمِ من الحُسنِ، قلوبهم علىٰ قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ، لا تَبَاغُضَ بَيْنَهُمْ ولاَ تَحَاسُدَ»(٢)، بل يُسبحون الله بُكرةً

---

(١) انظر لِزاماً (حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح) للإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ لِترىٰ العجب العجاب والوصف المُستطاب.

(٢) البخاري (٣٢٥٤) ومُسلم (١٦٢٥، ٢٨٣٤).

وعَشيّاً جرداً مرداً بيض مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين سنة لو اطلعت امرأة من نساء الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولأضاءت ما بينهما، ولنصيفها (أي: خمارها) على رأسها خير من الدنيا وما فيها: ينادي مناد: (إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحّوا فلا تَسقَموا أبداً، وإن لكم أن تَنعموا فلا تبأسوا أبداً».

وإن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط، قَالَ رسُولُ الله ﷺ: **«إنَّ في الجَنَّة لَمُجْتَمَعاً للحُور العين يرفعن بأصواتٍ لمْ يَسْمَعْ الخلائقُ مثلها يَقُلْنَ: «نحنُ الخَالدات فَلا نَبيدُ، ونَحْنُ النَّاعِمَاتُ فلا نَبأس، ونَحْنُ الرَّاضيَاتُ فلا نَسْخَطُ، طُوبَى لِمَنْ كانَ لنا وكُنَّا لهُ»**[1].

وإن مما يغنين به: (نحن الخيرات الحِسان، أزواج قوم كرام ينظرون بِقُرَّةِ أعيان) وإن مما يغنين به: (نحن الخالدات فلا نمتنه، نحن الآمنات فلا نخفنه، نحن المقيمات فلا نظعنه).

يقول أبو هريرة - رضي الله عنه -: «إنَّ في الجنة نهراً طول الجنة حافتاه العَذَارىٰ قيام مُتقابلات يُغنين بأحسن صَوتٍ يَسمعه الخلائق، حتىٰ ما يَرون أنَّ في الجنة لذة مِثلها، قُلنا: يا أبا هريرة! وما ذاك الغِناء؟ قال: إن شاء الله التسبيح والتحميد وثناء علىٰ الرب تَبَارَكَ وتَعَالىٰ».

فسماعهم غناء أزواجهم من الحور العين، وأعلىٰ منه سماع أصوات الملائكة والنبيين، وأعلىٰ منهما سماع خِطاب ربِّ العالمين ولذة النظر إلىٰ وجهه الكريم.

وهاك بعض أوصاف الحور العين اللؤلؤ المكنون كأنهن الياقوت والمرجان باختصار وإيجاز:

فهن العرائس الأتراب اللائي جرىٰ في أعضائهن ماء الشباب، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النَّهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٦٤) وأحمد (٢٣٤٥).

وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور، تجري الشمس من محاسن وجهها إذا هي برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابلت حبها فقل ما تشاء في تقابل النيرين، وإذا حادثته فما ظنّك بمحادثة الحبيبين، وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين، لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحاً ولاستنطقت أفواه الخلائق تهليلاً وتكبيراً وتسبيحاً، ولتزخرف لها ما بين الخافقين ولأغمضت عن سِواها كل عين، ولطمست ضوء الشمس والقمر كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن من على ظهرها بالله الحي القيوم. يسطع نور في الجنة فيرفع أهلها رؤوسهم فإذا هو ثغر حوراء قد ضَحكت في وجه زوجها.

وأما شَجرها: فما فيها من شجرة إلا وساقها من فضة وذهب لا من الحطب والخشب.

وأما ثمرها: فأمثال القلال، ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وطعامهم: لحم طير مما يشتهون، وفاكهة مما يتخيرون.

وشرابهم: ماء غير آسن، وخمر لذة للشاربين، وعسل مُصفًّى، ولبن لم يتغير طعمه.

ولباسهم: الحرير والسندس والاستبرق، يحلون فيها بالذهب والفضة واللؤلؤ.

أهل الجنة ملوك آمنون وفي أنواع السرور يمتعون، ولهم فيها كل ما يشتهون، وإلى وجه الله ناظرون، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون، لا يخافون ولا يحزنون، ومن ريب المنون آمنون، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، مفتحة لهم الأبواب.

الجنة نور يتلألأ وريحانة تهتز، وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية.

وهي كما قيل: أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العلماء

الأكياس، وأحرىٰ ما زاحم عليه عقلاء الناس.

والحسرة كل الحسرة أن تضيع لحظة من الوقت الشريف والعمر النفيس في غير الاشتغال بالعمل الموصل إلىٰ هذه الدار، وكيف يكون عاقلاً من باع الجنة فيها بشهوة ساعة.

فهلا اشتقت إلىٰ رؤيا الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وأهل الفضل من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين في الجنة؟

هل تريد التمتع بالحور العين؟ هل تريد النظر إلىٰ وجه الله الكريم؟ هل تريد النعيم السرمدي الدائم الذي لا يزول ولا يحول؟

(ثم إن هناك في الجنة يوم المزيد وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه، كما ترىٰ الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر، فاستمع يوم ينادي المنادي: «يا أهل الجنة.. إن ربكم - تبارك وتعالىٰ - يستزيركم فحي علىٰ الزيارة فإذا بالنجائب قد أعدت لهم، فيستوون علىٰ ظهورها مسرعين، حتىٰ إذا انتهوا إلىٰ الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعدا، وجمعوا هناك، فلم يغادر الداعي منهم أحدا، أمر الرب - تبارك وتعالىٰ - بكرسيه فنصب هناك - ثم نصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، وجلس أدناهم علىٰ كثبان المسك، ما يرون أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا، حتىٰ إذا استقرت بهم مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم، نادىٰ المنادي: يا أهل الجنة.. سلام عليكم.. فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيتجلىٰ لهم الرب - تبارك وتعالىٰ - ويضحك لهم، ويقول يا أهل الجنة... فيكون أول ما يسمعون منه تعالىٰ: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني، فهذا يوم المزيد، فيجتمعون علىٰ كلمة واحدة: أن قد رضينا، فارض عنا فيقول: يا أهل الجنة.. إني لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتي، هذا يوم المزيد، فسلوني فيجتمعون علىٰ كلمة واحدة: (أرنا وجهك ننظر إليه) فيكشف الرب - جل جلاله

ـ الحجب، ويتجلىٰ لهم، فيغشاهم من نوره ما لولا أن الله سبحانه وتعالىٰ ـ قضىٰ أن لا يحترقوا لاحترقوا. ولا يبقىٰ في ذلك المجلس أحد إلا حاضَرَه ربه ـ تعالىٰ ـ محاضرةً حتىٰ إنه يقول: يا فلان، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا، يذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول: يا رب ألم تغفر لي؟ فيقول: بلىٰ: بمغفرتي بلغت منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة. ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلىٰ وجهه الكريم في الدار الآخرة، ويا ذل الراجعين بالصفقة الخاسرة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة ٢٢ ـ ٢٥].

فحي علىٰ جنات عدن فإنها ... منازلك الأولىٰ وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترىٰ ... نعود إلىٰ أوطاننا ونسلم

انتهىٰ كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ(١).

فكن لله متجهاً بقلب ... فعند الله جنات عوال

تمتع يا سليم القلب فيها ... بكل السؤال من قبل السؤال

ترىٰ وجه الإله ونعم وجه ... مليء بالمحبة والجلال

يقول أحمد بن حرب:

(إن أحدنا يؤثر الظل علىٰ الشمس، ثم لا يؤثر الجنة علىٰ النار لمغبون).

قال يزيد الرقاش: «أمن أهل الجنة الموت فطاب لهم العيش وأمنوا الأسقام

---

(١) من كتاب الحافل [حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح] ص(٣٢٤) وهو كتاب عظيم، اسمه يطابق مسماه ولفظه يوافق معناه وهو للمحزون سلوة وللمشتاق إلىٰ تلك العرائس جلوة، محرك للقلوب إلىٰ أجل مطلوب وحادٍ للنفوس إلىٰ مجاورة الملك القدوس ممتع لقارئه مشوق للنظر فيه، لا يسأمه الجليس ولا يمله الأنيس مشتمل علىٰ بدائع الفوايد وفرائد القلائد علىٰ ما لعل المجتهد في الطلب لا يظفر به فيما سواه من الكتب. . . من مقدمة لمؤلفه ـ رحمه الله ـ ولا ريب أن ما ذكره هنا في وصف الجنة مستند علىٰ أدلة من الكتاب والسنة، وقد ذكرها مفصلة في فصول كتابه المشار إليه.

فهنيئاً لهم في جوار الله طول المقام».

فأين أنت يا عبدالله: من الجنة وجمالها وبهائها ونعيمها وسرورها وبهجتها وحبرتها وخلودها وحورها وخيراتها وروحها وريحانها وحريرها واستبرقها وأرائكها وغرسها وثمرها وعبقريها ومرجانها وذهبها وفضتها وأكوابها وعسجدها وصحافها وأباريقها وفواكهها وعسلها ومائها ولبنها وخمرها ونعيمها المقيم الدائم الخالد في دار الرضوان والكرامة.

يا سلعة الرحمن لست رخيصة	**بل أنت غالية على الكسلان**
يا سلعة الرحمن ليس ينالها	**في الألف إلا واحد لا اثنان**
ياسلعة الرحمن ماذا كفؤها	**إلا أولو التقوى مع الإيمان**
يا سلعة الرحمن سوقك كاسد	**بين الأراذل سفلة الحيوان**
يا سلعة الرحمن أين المشتري	**فلقد عرضت بأيسر الأثمان**
يا سلعة الرحمن هل من خاطب	**فالمهر قبل الموت ذو إمكان**
يا سلعة الرحمن كيف تصبر الخـ	**طاب عنك وهم ذوو إيمان**

والدار الثانية: [جهنم]:

هي دار الشقاء والأحزان والهموم والغموم، وقد جعلها الله تبارك وتعالى لمن خالف أمره، وأوضع في معاصيه، وأعد فيها من النكال والأهوال العظام ما لا يخطر على البال، ولا يدخل تحت الحسبان، ولا يعلم خطره إلا الله تبارك وتعالى، فما أن يراها أهلها حتى يبهتوا لهولها، ويفزعوا لفظاعتها، ويندموا أعظم الندم ويتمنوا الرجعة إلى دار العمل، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٤-٤٥].

ويا لشدة الهول إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وزفيراً، فعلى صراخهم واشتد ذعرهم ونادوا على أنفسهم بالويل والثبور.

الله أكبر: كم من جسد صحيح، ووجه صبيح ولسان فصيح، غدا بين

أطباق النار يئن ويضج ويتوجع ويصيح.

فهل تذكرت هذه الأهوال؟ وهل اعتبرت بها؟ قل لي بالله عليك ما حال المضيع لأوامر الله تبارك وتعالى، والمنتهك لحرماته المجاهر بالمعاصي؟!

تذكروا صور العذاب: من حر وسموم وزمهرير وزقوم وصديد وسلاسل وأغلال؟

تذكروا أهل النار وهم في طبقات جهنم ودركاتها يصطرخون بالويل والثبور، لهم فيها بالويل ضجيج وبالخلاص عجيج، أمانيهم الهلاك وما لهم من أسر جهنم فكاك، قد شدت أقداهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ذل المعاصي، ينادون من فجاجها وشعوبها، بكياً من شدة العذاب، وقد انبحت منهم الحلوق، وتقطعت الكبود، وهم في جهنم وأوديتها يهيمون، وعلى وجوهم يمشون.

يقولون: (يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك قد تفلذت وتمزقت، وتقطعت منا الكبود، يا مالك العدم العدم خير من هذا الوجود، يا مالك أخرجنا فإنَّا لا نعود).

فيقول: اخسؤوا فيها ولابد من الخلود.

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

والنار تغلي بهم غلي القدور، وتهشم رؤوسهم بمقامع من حديد، ويتفجر من أفواههم الدم والقيح والصديد، فكيف حال من تشتعل النار في جسده كله؟! وكلما نضج جلده أبدل جلداً غيره، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢].

ويسحب في النار على وجهه، قال تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤].

ويصب الحميم من فوق رؤوسهم فيصهر ما في بطنه، وينزع جلده، ثم هو في النار تشتعل في جسمه ووجهه، ثم لا غاية لعذابها، ولا تفتر عنهم، ولا هم يرجون منها فرجا ولا مخرجاً، قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] لا يرحمون إذا بكوا ولا يعذرون إذا اشتكوا، ولا يجابون إن دعوا، ولا يعتبون إن استعتبوا، فإن تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤].

ويروى أن عمر - رضي الله عنه - مر بكثيب من رمل فقال: (مساكين أهل النار، لو علموا أنهم إذا لبثوا في جهنم عدد هذا الرمل وأخرجوا منها لكان لهم أمد يمدون أعناقهم، ولكن لا غاية لهم).

فكيف يا عبدالله لو نظرت إليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواداً من الحميم، وقد خلدوا في دار الجحيم قد شوهت صورهم، وفخمت ومدت أجسامهم، وتغلظت أبدانهم، وهم في السلاسل والأغلال والكبول والأنكال يجرون ويسحبون ويقيدون ويضربون، ولا يبرحون يتجرعون الغصص، ويتذوقون مر العذاب، حزنهم دائم وعذابهم لا ينقطع ولا يخف ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧] دار الهلكات والسعير والدركات والأغلال واللفحات.

قال تبارك وتعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ

مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠-٧٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨].

* فمن طعام أهل النار: الغسلين والغساق وهما ما سالا من جلود أهل النار مما تجمع من القيح والصديد والعرق.

وقيل: ما يسيل من فروج النساء الزواني، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم. وهم (يسقون عصارة أهل النار طينة الخبال)[1].

ومن طعامهم الزقوم، يقول ﷺ مبينا شناعة وبشاعة الزقوم وفظاعته: **«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه»**[2].

والزقوم: ثمر يخرج من شجرة تنبت في أصل الجحيم، مذاقه شديد المرارة يغص به الحلق فلا يستسيغه إلا بالماء الحار الحميم.

والضريع: شوك متناه في المرارة، ينشب في الحلق، يستسيغه الآكل بالحميم فيسبب له إسهالاً عنيفاً فظيعاً شنيعاً.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) وابن ماجه (٨٨٣٩) وصححه الترمذي وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥) ابن ماجه (٤٣٢٥) وأحمد ١/ ٣٠٠، ٣٣٨ وابن حبان (٧٤٧٠) والحاكم ٢/ ٢٩٤، ٤٥١ والبغوي في شرح السنة١٥/ ٢٤٦-٢٤٧ (٤٤٠٨) صححه الترمذي والحاكم وابن حبان وحسنه البغوي، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي وابن ماجه لتدليس الأعمش عن مجاهد، ولكن البخاري أخرج رواية الأعمش عن مجاهد وقد صححها من رأيت من العلماء.

ومن شرابهم: ماء الصديد: وهو ماء كدر يحوي كميات من الصديد يغص به شاربه حتى لا يكاد يسيغه، يعاني شاربه آلاماً لا يعلم مداها إلا الله تبارك وتعالى.

ومن شرابهم: ماء المهل: وهو ماء ثخين حار حتى لكأنه النحاس المذاب بحيث إذا أدناه أحد من فمه ليشربه شوت حرارته جلدة وجهه.

ومن شرابهم: الحميم: وهو ماء حار يجري من عين آنية شديدة الحرارة، فإذا شرب صهر البطون وقطع الأمعاء.

أخرج مالك في موطئه من حديث أبي هريرة أنه قال: **«أترونها حمراء كناركم هذه؛ لهي أسود من القار»** والقار هو الزفت[1].

دار الخزي والخسران والنكال والبوار، دار النغص والنكد والكدر وعدم راحة البال، إنها سجن الجبار، جهنم مأوى الكافرين المشركين الضلال والفجرة والمردة العصاة، دار جهنم سقر لظى الحطمة السعير الجحيم الهاوية ودركات دركات كل دركة تحت الأخرى.

يعانون ويصلون ويكابدون همومها وغمومها، وأحوالها وأهوالها وحميمها وزقومها وغسلينها ومهلها وصديدها وقيحها ودمها وشررها ووهجها وسوادها وظلمتها وخبثها ونتنها ولهبها وحياتها وعقاربها ونكالها وزبانيتها وسلاسلها وأنكالها وسمومها ودخانها وزمهريرها وسعيرها وأغلالها.

يا عبدالله: إن لك بين يدي الله تبارك وتعالى مقاما، وإن لك من مقامك هذا منصرفا فانظر إلى أين منصرفك، ألى الجنة أم إلى النار.

فيا أخي: اذكر سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، واحذر أن يكون المنصرف بك من عند الله تبارك وتعالى إلى النار فيكون آخر العهد ومنقطع الرجاء.

فهل تذكرت هذه الأهوال؟ وهل اعتبرت بها، قُلْ لي بالله عليك ما حال

---

(١) مالك برقم ٢/ ٩٩٤ (١٣٧٨) وبرواية أبي مصعب (٢٠٩٩) وبرواية سويد بن سعيد (٧٨٤).

المضيع لأوامر الله والمنتهك لحرمات الله، المجاهر بمعاصي الله البعيد كل البعد عما يرضي الله ـ عز وجل ـ.

ما حال المستخف بنظر الله تبارك وتعالىٰ والآمن من عقوبته؟ والمفرط في جنب الله؟ ما حال تارك الصلاة؟ ما حال آكل الربا؟ ما حال المتبرجات؟ ما حال من ينام عن صلاة الفجر؟

بينما هم في غفلة وإعراض ودعة ومعاص وشهوات وهوىٰ إذ أخذهم أمر الله تبارك وتعالىٰ وهم نائمون، وأتاهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسبون، تقلبوا علىٰ تلك اللذات طويلاً فأصبحوا بها يعذبون، رتعوا مرتعاً وخيماً فأعقبهم عذابا أليماً فندموا والله أشد الندم، حين لا ينفع أي ندم، وبكوا علىٰ ما أسلفوه فجرت دموع الدم، ويقال لهم وهم في العذاب يسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا إنما تجزون ما كنتم تعلمون.

ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات.

عادت وربك عاد وثمود فإلام نذهب في الهوىٰ ونعود
فالغافلون الناكبون عن الهدىٰ هم والحجارة للجحيم وقود
يا غافلين عن العذاب تنبهوا والله إن حياتكم ستبيد
إن الذي أفنىٰ الأوائل قادر أن يفنىٰ الباقين وهو مجيد

وقيل:

تفنىٰ اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقىٰ الإثم والعار
تبقىٰ عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

* * *

فلا تقرب الأمر الحرام فإن حلاوته تفنىٰ ويبقىٰ مريرها

وقيل:

فـــاذكـــر وقـــوفك خـــائفـــا	والـنـاس في أمـــــــر عـظيـم
إمـــــا إلى ذل الشــــقـــــا	وة أو إلى الـعـــــز المقـــــيـم
فـــاجـــعل تقـــاك وقـــاية	في الحـشـــر من نار الســمـــوم
واغنم حـــيـــاتك واجـــتـــهـــد	وأنـب إلى الـرب الـرحــــيـم

أخي المسلم:

استحضر عظمة الجبار وهول المطلع، يوم تشيب فيه الولدان، وفكر في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، ونار يقال لها لظى ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٦-١٧].

قال إبراهيم التيمي - رضي الله عنه -: «مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأتمتع بنعيمها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين؟

فقالت: أن أرد إلى الدنيا فأزداد في العمل الذي نلت به هذا.

ثم مثلت نفسي في النار، أحرق بجحيمها وأطعم من زقومها، فقلت لنفسي: أي شيء تريدين؟.

فقالت: أن أرد إلى الدنيا فأعمل عملاً أتخلص به من هذا العمل.

فقلت لنفسي: يا نفس فأنت في دار الأمنية فاعملي»[1].

قال أبو سليمان الداراني - رضي الله عنه -: «إذا أردت عملاً ترى أنه طاعة فإن وردت به السنة فاعمله وإلا فدعه، وإذا دعتك نفسك إلى فعل محظور فاذكر سوء عاقبته».

(فاعرف ربك ومولاك حقا، ومعرفة الله هي التي توجب الحياء منه والمحبة له، وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته، والإنابة إليه والأنس به، والفرار من الخلق إليه)[2].

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢١٠ وصفوة الصفوة ٣/ ٥٨.

(٢) الفوائد لابن القيم (٦).

قال ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في (مدارج السالكين):

«في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله تبارك وتعالى، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله تبارك وتعالى، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا» انتهى.

قال الأصمعي: «سمعت أعرابية تقول: إلهي ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله، وما أوحشه على من لم تكن أنيسه» انتهى.

وإذا دعتك نفسك إلى معصية فذكرها سوء عاقبتها، واعلم أن الله تبارك وتعالى ناظر إليك مطلع عليك، فقل لنفسك: (لو كان رجل من صالحي قومي يراني لاستحييت منه فكيف لا أستحي من ربي تبارك وتعالى) ثم لا تأمن من تعجيل عقوبته وكشف ستره، يقول تبارك وتعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨].

قال بعض السلف ـ رضي الله عنه ـ: «ليس الخائف من بكى فعصر عينيه، وإنما الخائف من ترك ما اشتهى من الحرام إذا قدر عليه».

وقال بعضهم ـ رضي الله عنهم ـ: «عجبت من ضعيف يعصي قويا».

وقال بشر الحافي ـ رضي الله عنه ـ: «لو تفكر الناس في عظمة الله تبارك وتعالى لما عصوه». وما عصى الله تبارك وتعالى إلا جاهل.

يقول عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «أعجب ممن عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها».

قال قتادة ـ رضي الله عنه ـ: «أجمع أصحاب النبي ﷺ أن كل من عصى الله فهو في جهالة».

قال حكيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «أعجب شيء رأيته رجل بيده القرآن ويطلب

علماً سواه، وأعجب من قلب عرف الله ثم عصاه».

وقال غيره: «أجمع الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - أن من عصى الله تبارك وتعالى فهو جاهل».

يقول سعيد بن المسيب - رحمه الله -: «ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة ولا أهانت نفسها بمثل معصيته».

أخي خمس في خمس:

الحجة في القرآن، والعز في القناعة، والذل في المعصية، والهيبة في قيام الليل، والغنى في ترك الطمع.

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: خرجت مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حتى دخل حائطاً (أي بستاناً) فسمعته يقول - وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط -: (عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ، والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك).

فيا حسرة على أقوام أصروا على صغار الذنوب وألفوها وهانت عليهم ولم يتفكروا يوماً في عظمة من عصوه فكانت سبباً في سوء خاتمتهم.

ومن فكر في عظمة مخلوقات الله تذكر عظمة الله يقول ﷺ: **«أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقة مسيرة سبعمائة عام»**[١].

وجبريل - عليه السلام - له ستمائة جناح[٢] تسد ما بين المغرب والمشرق. سلطه الله على قوم لوط عليه السلام في قرى سدوم فأدخل طرف جناحه تحت قراهم ورفعها في الهواء إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم ونهيق حميرهم وصراخهم وأناتهم، ثم قلبها سافلها عاليها ليخسف بها الأرض ثم يتبعها حجارة معلمة موسومة من سجيل السماء وما هي من الظالمين ببعيد.

---

(١) صحيح الجامع (٨٥٤) (١/ ٣٠٩).

(٢) متفق عليه عن ابن مسعود.

يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] (ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته)؟.

المخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله معترفة بقدرته وعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] ملأت كل شيء عظمته وقهر كل شيء ملكه وأحاط بكل شيء عمله بيده مقاليد السموات والأرض ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] كل من بالكون تحت ارادته وقدرته أخرج سبحانه الناقة من الصخرة لقوم صالح وأخرّ غروب الشمس إجابة ليوشع بن نون وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم وبضرب موسى الحجر بالعصا انفجرت منه اثنتا عشر عيناً وانفلق البحر فكان اثني عشر طريقاً يبساً وجعل عيسى يحيى الموتى بإذن الله وينفخ في الطير المصنوع من الطين فيصير طيراً بإذنه. وأنزل مائدة من السماء لما طلب الحواريون من عيسى. وشق القمر شقين للنبي ﷺ لما سأله أهل مكة أن يريهم آية واسبغ الله من أصابع النبي ﷺ ماء وصار يفور كامثال العيون وانطق الله الحجر بالسلام على النبي ﷺ وكذا الشجرة جاءت إليه تسعى وبكى الجزع وصاح لما فارقه وحن واشتاق إلى النبي ﷺ فلما ضمه ﷺ سكن وانطق الله فخذ الشاة المسمومة له ﷺ ولما سقطت عين قتادة على وجنتيه فردها رسول الله ﷺ فعادت أحسن عينيه وأحدّ هما وهو سبحانه على كل شيء قدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وكان الله على كل شيء مقتدراً.

أخي أخي: إنه الله ـ عز وجل ـ فكيف لا نحبه:

من أعجب الأشياء أن تعرف المولىٰ تبارك وتعالىٰ ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق قسوة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلىٰ انشراح الصدر بذكره ومفاجأته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ولا تهرب منه إلىٰ نعيم الإقبال عليه، والإنابة إليه. . .

فلا عيش إلا عيش من أحب الله تبارك وتعالىٰ وسكنت نفسه إليه واطمأن قلبه به واستأنس بقربه وتنعم بحبه، ومن لم يكن كذلك: فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات زفرات عبرات ظلمات.

إن الأنس بالله تبارك وتعالىٰ ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع لله تبارك وتعالىٰ مستأنس به، وكل عاصٍ لله تبارك وتعالىٰ مستوحش منه.

إذا أوحشتك الذنوب فدعها وبالله فاستأنس

أخي في الله:

إن المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت، ولكن الرب تبارك وتعالىٰ إذا خفته أنست به وقربت إليه.

وأعجب من هذا كله: علمك أن الله تبارك وتعالىٰ لا غنىٰ لك عنه وأنك أحوج شيء إليه وأنت معرض عنه، وفيما يبعدك عنه راغب ﴿ففروا إلى الله﴾ [الذاريات: ٥٠].

خاطب نفسك وقل لها:

يا نفس إلىٰ أين المسير ولم تسيرين؟ كيف بك إذا لاقيت الموت ولابد أن تلاقيه عاجلاً أم آجلاً؟ يا نفس كيف بك إذا برز الموت بغتة ووضعت في قبرك وتولىٰ عنك كل مالك إلا عملك؟ وكيف بك إذ يسألك الملائكة وأنت في القبر؟ وكيف بك إذا وقفت يوم الحشر؟ وكيف بك وأنت تُساقين إلىٰ خازن النار؟ وكيف بك

إذا لم يرحمك أرحم الراحمين ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٤].

عجباً لك يا ابن آدم خلقت من نطفة مذرة ثم تغدو جيفة قذرة وأنت حامل للعذرة، خلقك الله تبارك وتعالىٰ فسواك ورزقك وكساك، ومن كل خير طلبته أعطاك، فعصيت وما شكرت، وأذنبت وما أَنَبْتَ، تنتقل من معصيةٍ إلىٰ معصية، ومن ذنب إلىٰ ذنب حتىٰ غمرتك الذنوب.

فيا ليت شعري متىٰ تتوب؟ متىٰ تئوب؟ أتظن أن من يتهاون بالصلاة ويتساهل في الفرائض، ويصر علىٰ المعاصي ويُدمنُ علىٰ الخطايا ينجو ويفلح؟ كلا وربي. خل عنك الصدود والجحود واحذر الموت المُفاجيء، فلربما يأتيك وأنت تلهو وتلعب، وأنت علىٰ معصيتك، أما ترىٰ صرعة الموت وقتلاه في الشوارع؟ فكم حُدثت وحُدِّثنا عن سليم مات من غير علة، ومعافىٰ مات في فراش نومه، فلا تغتر بشبابك، و تَنخدع بصحتك، ولا تزهو بغناك، ولا تُفرط في عمرك الراحل، فتُب إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ وسبِّح بحمد ربِّك واستغفره إنه كان تواباً.

فيا من لجَّ في بحر المعاصي وغرق في شهواته: ألا تخشىٰ مجيء الموت بغتةً فتُساق من فرش إلىٰ أكفان؟ ألا تخشىٰ الإنفضاح عند الموت وهول المطلع؟ ألا تخشىٰ من هيبة الوقوف بين يدي الله، ألا تستشعر وقت ولحظة وزن الأعمال بالميزان وتطاير الصّحف.

أخي إن الرب - عز وجل - سوف يسأل المرء يوم القيامة - ذلك اليوم العصيب الرهيب - عن عمره ووقته وأنفاسه؟ كيف قضاها؟!! وأين أنفقها؟ وفيم استغلها وبأي شيء ملأها؟ بالطاعات والباقيات الصالحات؟! أم بالتنقل بين المعاصي والسيئات ومبارزة رب الأرض والسموات والجرائم والعظائم؟!

فإن كان المرء ممن اغتنم عمره وحفظ وقته في مرضاة ربه فإنه يسدد ويوفق في الجواب ويبشر بالحور والدور والغرف والقصور، وإن كان المرء ممن أضاع وقته

وانفق عمره في معصية الله فالويل له كل الويل!! فليت شعري كيف سيكون حاله إذا سئل عن وقته كيف قضاه؟!! وبأي حجة سيدافع عن إضاعته لعمره وأنفاسه؟

فيا من صرف عمره في الغفلة والعصيان وأنفق وقته فيما يغضب الرحمن ماذا قدمت لذلك الموقف العصيب؟!! وماذا أعددت لذلك السؤال الرهيب؟ هل أعددت له جواباً؟ وهل أعددت للجواب صواباً.

واستمع إلىٰ الرب وهو يقرر لنا هذه الحقيقة الكبرىٰ فيقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] فتأمل أخي كيف أقسم الرب - عز وجل - بنفسه لتقرير هذه الحقيقة؟ فهل يبقىٰ بعد ذلك أي شك أو تردد في صحتها؟!!

واستمع إلىٰ الرسول ﷺ وهو يزيد الأمر إيضاحاً وبياناً فيقول: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يُسأل عن خمس: عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم**»[(١)].

فتأمل يا رعاك الله كيف أن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن وقته باعتبارين:

أ - يُسأل عن عمره كله كيف قضاه وفيم أنفقه؟!

ب - يُسأل عن فترة خاصة من فترات العمر ومراحله ألا وهي فترة الشباب فترة الحيوية والنشاط كيف قضاها؟ وبأي شيء ملأها؟ أفي العبادة وقيام الليل والدعوة إلىٰ الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ و . . . . . الخ، أم أنه قضاها في المعاصي والفسق والفجور؟ أم أنه قضاها في اللغو والثرثرة والغفلة والنوم الكثير والقيل والقال فما عساه يكون جوابك أخي الحبيب؟!![(٢)]

واعلم رحمك الله أنَّ للتوبة علامات: فمن علاماتها: ما قاله يحيىٰ بن معاذ - رضي الله عنه -: (الذي حَجَبَ النَّاس عن التَّوبة: طُولُ الأملِ، وعلامات التَّائب، إسبالُ الدَّمعةِ، وحُبّ الخلوةِ، ومُحاسَبَةِ النَّفسِ، عند كلِّ هَمَّة)[(٣)]

---

(١) الترمذي. السلسلة الصحيحة (٩٤٦).

(٢) (١٢٥) طريقة (١٨٠ - ١٨١).

(٣) مُؤانسة المجالس بأفضلِ جالس (ص٢٢).

وقال سُليمان بن دينار ـ رضي الله عنه ـ : «لوددت أنَّ أحدكم يُبقي على دينه كما يُبقِي أحدكم على نعله»[١].

قال أحد الصالحين رَحِمَهُ الله تعالى : «يا عجباً من الناس : يبكون على من مات جسده، ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد، إن موت البدن يقطعك عن الدنيا وأهلها، ولكن موت القلب يقطعك عن الله والدار الآخرة، فشتان ما بينهما»[٢].

يروى عن الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ أنه قيل له يوماً : يا أبا عبدالله! هذه القصائد الرقائق التي في ذكر الجنة والنار، أي شيء تقول فيها :

فقال الإمام أحمد : مثل أي؟

قال السائل : يقولون :

إذا ما قال لي ربي ... أما استحييت تَعصيني
وتُخفي الذنب عن خلقي ... وبالعِصيان تأتيني
فما قولي لهُ لمّا ... يُعاتبني ويقصيني

فقال الإمام : أعد عليَّ.

فأعادها السائل عليه. فقام الإمام أحمد ودخل بيته ورد عليه الباب فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يردد : «إذا ما قال لي ربي . . . . . الخ».

ولله در القائل :

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

ويقول الفضيل بن عياض ـ رضي الله عنه ـ : «بقدر ما يصغر ذنبك عندك بقدر ما يعظم عند الله تبارك وتعالى، وبقدر ما يعظم ذنبك عندك يصغر عند الله تبارك وتعالى».

وقال أويس ـ رضي الله عنه ـ لهرم بن حيان : «لا تنظر إلى صغر ذنبك ولكن أنظر إلى من عصيت، فإن صغرت ذنبك فقد صغرت الله تبارك وتعالى، وإن

---

(١) الزمن القادم (٣/ ٢٢).

(٢) بهجة المجالس وأنيس المقيم والمسافر لأبي عبدالله الأثري (ص ١٢٧).

عظمت ذنبك فقد عظمت الله».

وقال ابن الجوزي - رحمه الله تبارك وتعالى - : «إنه بقدر إجلالكم لله تبارك وتعالى يجلكم الله تبارك وتعالى، وبقدر تعظيم قدره واحترامه تعظم أقداركم وحرمتكم»[1].

وقال الصحابي الجليل ابن عباس - رضي الله عنهما - : (يا صاحب الذنب لا تأمنن سوء عاقبته ولما يتبع الذنب من الذنب إذا عملته أعظم :

(١) قِلة حيائك ممن على اليمين والشّمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب.

(٢) وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب.

(٣) وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب.

(٤) وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب.

(٥) وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب أعظم من الذنب.

(٦) وعدم اضطراب فؤادك من نظر الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ إليك أعظم من الذنب[2].

كان بالبصرة رجل له أجير وكانت للأجير امرأة حسناء فوقعت في نفس الرجل فأرسل أجيره ودخل على امرأته فقال لها: أغلقي كل باب ففعلت. فقال لها: هل بقي باب لم تغلقيه؟ قالت: نعم. قال: وما هو؟ قالت: الباب الذي بيننا وبين الله - عز وجل -. فبكى ثم قام وانصرف.

يقول بلال بن سعد: لا تكن وليّاً لله في العلانية وعدوه في السر، ولا تكن عدو إبليس والنفس والشهوات في العلانية وصديقهم في السر، ولا تكن ذا وجهين وذا لسانين فتظهر للناس أنَّك تخشى الله ليحمدوك وقلبك فاجر».

نسأل الله السلامة والعافية.

وقال بعض الصالحين - رحمه الله تعالى - لمن استوصاه: «اتّقِ الله أن يكون الله - تبارك وتعالى - أهون الناظرين إليك».

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي.

(٢) ذم الهوى (ص ١٤٨ - ١٤٩) بتصرف.

خاطب نفسك وقل لها: ويحك يا نفس إن كانت جرأتك على معصية الله تَبَاركَ وتَعالىٰ لاعتقادك أنّ الله لا يراك فما أعظم كفرك؟ وإن كانت مع علمك باطلاعه فما أشد وقاحتك وأقلّ حيائك.

ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك أو أخ من إخوانك بما تكرهينه، فكيف يكون غضبك عليه ومقتك له؟ فبأيّ جسارة تتعرضين لمقت الله تبارك وتعالىٰ وغضبه وشديدِ عقابِه؟ أفتظنينَ أنَّك تُطيقين عذابه؟!

ومع هذا كله فأقول: أخي العاصي (وكلنا ذو معاصي) الحذر الحذر من اليأس والقنوط من رحمة الله والاعتقاد بعدم قبول الله تبارك وتعالىٰ فإنه تبارك وتعالىٰ من الناس قريب، وإن بعض الناس من إذا وقع في معاص عظام وذنوب جِسام وقارف ألواناً من الأوزار والآثام اعتقد معها أنه لا سبيل إلىٰ التوبة ولا قبول لاعتذار، وظن أن ما وقع فيه من الذنب أعظم من أن تقبل توبته أو تشمله مغفرته، فيكون من القانطين. وهذا بلاشك من عظيم جهله بالله تبارك وتعالىٰ وواسع مغفرته.

ونقول له: إنَّ قنوطك من ذنوبك أعظم.

جاء رجل إلىٰ الحسن البصري - رضي الله عنه - يسأله عن زهده في الدنيا، فقال: «عَلمتُ أنَّ رِزقي لن يأخذه أحدٌ غيري فاطمأنَّ قلبي، وعَلمتُ أن الله مطلعٌ عليَّ فاستحييت أن يراني في معصيته، وعَلمتُ أنَّ الموتَ ينتظرني فأعددت نفسي للقاء لربي» انتهىٰ.

وقال بعض السلف - رحمه الله تعالىٰ -: «خفِ الله تبارك وتعالىٰ علىٰ قدر قدرته عليك، واستحي منه تَبارَك وتَعَالىٰ علىٰ قدر قَربه منك» انتهىٰ.

يقول سعيد بن جبير: «إنَّ أفضل الخشية أن تخشىٰ الله خشية تحول بينك وبين معصيته، وتحمل علىٰ طاعته.. فتلك هي الخشية النافعة».

وقال بعض الصالحين: «والله ما عمرك من أول يوم وُلدت، بل عمرك من أول يوم عرفت الله تعالىٰ» انتهىٰ.

وفي قصّة كعب بن مالك - رضي الله عنه - وتوبته إلىٰ الله تَبَارك وتعالىٰ دليل علىٰ أنَّ خير أيام العبد علىٰ الإطلاق وأفضلها هو يوم توبته إلىٰ الله تَبارَك وتَعَالىٰ، وقبول توبته لِقول النبي ﷺ: **«أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك»**(١) انتهىٰ.

وذكر أن لقمان الحكيم رَحِمهُ الله تعالىٰ لما حضرته الوفاة قال لابنه: «يا بُني كثيراً ما أوصيتك إلىٰ هذه الغاية، وإني أوصيك الآن بستّ خِصال فيها علم الأوّلين والآخرين:

(١) ألا تُشغل نفسك بالدنيا إلا بقدر ما بقي من عمرك.

(٢) أن تعبد ربك بقدر حوائجك إليه.

(٣) أن تعمل للآخرة بقدر ما تريد المقام بها.

(٤) ليكُن شغلك في فِكاك رقبتك من النَّارِ ما لم تظهر لك النَّجاة منها.

(٥) ليكن جرأتك علىٰ المعاصي بقدر صبرك علىٰ عذاب الله تبارك وتعالىٰ.

(٦) إذا أردت أن تعصي الله تبارك وتعالىٰ فاطلب مكاناً لا يراك فيه الله تَبَارَكَ وتعالىٰ وملائكته»(٢)انتهىٰ.

أخي في الله تبارك وتعالىٰ: لما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان، أجابه ﷺ بقوله: **«هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**(٣).

فأشار ﷺ إلىٰ مقامين:

الأول: أن يعبد الله تبارك وتعالىٰ مستحضراً لرؤيته إياه، ويستحضر قربه تبارك وتعالىٰ منه واطلاعه عليه.

الثاني: أن يعبده تبارك وتعالىٰ علىٰ مشاهدته إياه فيعامله معاملة حاضر لا معاملة غائب.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨، ٢٧٥٧) ومُسلم (٧٦٩، ٧١٦).

(٢) (لُقمان الحكيم وحكمه) لمحمد خير رمضان.

(٣) رواه مسلم.

وهذا صحابي يسأل النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله عوراتنا نأتي منها وما نذر؟ فقال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» قلت يا رسول الله فإذا كان القوم بعضهم مع بعض؟ قال: **«إن استطعت ألا يراها أحد فلا يراها»** قلت: فإذا كان أحدنا خالياً فالله أحق أن تستحي من الناس». وهذا أبو بكر يقول: «أيها الناس استحيوا من الله فإني لأظل إذا أتيت الخلاء أغطي رأسي استحياء من ربي» ويقول بعض السلف: «إني لأغتسل في البيت المظلم فيما أقيم صلبي حياء من ربي حتىٰ آخذ ثوبي» وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وذكر عثمان وشدة حيائه فقال: «إنه كان ليكون في البيت والباب عليه مغلق فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء يمنعه الحياء أن يقيم صلبه» ويسأل النبي ﷺ رجل كيف يربي نفسه ويصغيها فيجيبه: **«أن يعلم أن الله معه حيث كان»** وفي رواية أخرىٰ: **«أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت»**[1].

«وقد روي أن رجلاً أتىٰ إبراهيم بن أدهم ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا أبا إسحاق! إني لا أصبر علىٰ المعاصي، فقل لي قولاً أنتفع به.

فقال الإمام إبراهيم ـ رضي الله عنه ـ: نعم، أقول لك خمس خصال إن قدرت عليها لم تضرك معصية.

قال الرجل: هاتها.

قال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله تبارك وتعالىٰ فلا تأكل من رزقه.

قال الرجل: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه.

قال إبراهيم: أفيحسن بك أن تأكل من رزقه وتعصيه؟

قال الرجل: لا، هات الثانية.

قال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله تبارك وتعالىٰ فلا تسكن بلاده.

قال الرجل: هذه أشد من الأولىٰ، إذا كانت السموات والأرض وما بينهما له، فأين أسكن؟!

---

(١) مجمع الزوائد (٤٠٢).

قال إبراهيم: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه.

قال الرجل: لا، هات الثالثة.

قال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله تبارك وتعالىٰ فانظر إلىٰ موضع لا يراك فيه فاعصه فيه.

قال الرجل: يا إبراهيم فكيف أصنع وما في السموات والأرض والجبال والبحار موضع إلا وهو بارز له، يرىٰ ما في قعر البحار وما تحت أطباق الجبال.

قال إبراهيم: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتجاهر بالمعصية؟.

قال الرجل: لا، هات الرابعة.

قال إبراهيم: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له: أخرني حتىٰ أتوب.

قال الرجل: لا يقبل مني.

قال إبراهيم: يا هذا، إذا كنت تعصيه، ولا تأمن مفاجأة الموت، ولا يقبل منك فيؤخرك، فتموت علىٰ غير توبة، فكيف يكون حالك؟!

قال الرجل: هات الخامسة.

قال إبراهيم: إذا أتتك الزبانية ليأخذوك إلىٰ النار، فلا تمضي معهم.

قال الرجل: لا يدعوني.

قال إبراهيم: فإذا كنت لا تقدر علىٰ الامتناع منهم، ولا تدع المعصية، فكيف ترجو الخلاص؟!.

قال الرجل: حسبي.

ثم لزم هذا الرجل إبراهيم بن أدهم، فعبد الله معه حتىٰ مات»[1] انتهىٰ.

قال أبو عبدالله السوانيطي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «مدار الأعمال علىٰ ستة أشياء: التعظيم، والحياء، والخوف، والرجاء، والمحبة، والهيبة. فمن ذكر التعظيم يهيج الإخلاص، ومن ذكر الحياء يحفظ خطرات قلبه، ومن ذكر الخوف تاب من ذنوبه، ومن ذكر الرجاء تسارع إلىٰ الطاعات، ومن ذكر المحبة تَصفو له

---

(١) (النصيحة العامة للخاصة من الناس والعامة) لعبد الله الملا (ص ١٤ ـ ١٥).

الأعمال، ومن ذكر الهيبة يدع التملك والاختيار»[(١)].

ولا يجد عبد صريح الإيمان حتىٰ يعلم بأن الله يراه، فلا يعمل سراً يفتضح به يوم القيامة.

عبدالله: إذا هممت بمعصية فتوقف لحظة وفكّر:

أليس يراك الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ وأنت تهم وتفعل؟

أليس ينفضح أمرك عند الملائكة الكرام عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ؟.

أليسَ تخاف أن ينكشف سِترك فيفضحك الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ عند الخلقِ؟

أليسَ لهذه المعصية ولذتها نهاية بعدها كأن لم تكن؟.

أليسَ بعد المعصية عِقاب في الدنيا والآخرة؟.

أليس ما عندك من نعيم يكفيك إذا تركت هذه المعصية؟.

أخي في الله: أسرع إلىٰ الله تَبَارَك وتَعَالىٰ بالمبادرة إلىٰ التوبة، فإنها من أعظم المنجيات وأفضل القربات، وقد أمر الله عِباده ورغَّبهم فيها، ووعدهم بِقبولها في كثير من الآيات، قال تَبارك وتعالىٰ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] إلىٰ غير ذلك من الآيات المتوافرة.

*** ثم اعلم أنَّ للتوبة شروطٌ:**

(١) أن يندم بقلبه علىٰ ما فَعَل من الذنوبِ السَّالفة.

(٢) أن يُقلع عنها، فلا تصح توبته وهو مقيم علىٰ الذنب ملازم له.

(٣) أن يعزم علىٰ ألا يعود إلىٰ ما فعل من الذنوب أبداً ما عاش.

وهذه الشروط لابد منها في التوبة وكذا الإخلاص لله تعالىٰ.

هذا إذا كان الذنب بينه وبين الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ ولم يتعلق به حق، فإن تعلق به حق وجب قَضاؤه، فإن كان صلاة أو صوماً قضاهما، أو كان زكاة أدّاها

---

(١) الزهد الكبير (٢٨٩).

بالقضاء، وذلك بحسب الاستطاعة، ويرد أموال الناس إن بقيت، ويغرمها إن تلفت، أو يستَحلّ منهم. فإن مات المستحق للأموال سلمها إلى الوارث له. فإن عجز عن ذلك لغيبة أو موت وأمكن التصدق عنه فليفعل، فإن لم يمكنه فعليه بتكثير حسناته والرجوع إلى الله تَبَارَكَ وتَعالىٰ أن يُرضيه يوم القيامة.

وأما ما كان في النفس فيمكنه من القصاص أو أوليائه حتىٰ يقتصوا منه، أو يجعل في حل، وإن عجز فالرجوع إلى الله تَبَارَكَ وتعالىٰ أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وأما الغيبة والبهتان والشتم: فالحق أن يكذب نفسه بين يدي من فعل ذلك ويستحل من صاحبه الذي اغتابه إن أمكن ذلك، ولم يخش زيادة الغيظ وهيجان فتنة في إظهار ذلك أو تجديده، فإن خشي ذلك فالرجوع إلى الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ ليرضيه عنه يوم القيامة، والاستغفار الكثير لصاحبه هذا إن بلغ المغتاب ذلك، فإن لم يبلغه فيكفي الشروط المذكورة من الندم والإقلاع والعزم على ألا يعود والترك لمثله[1].

أخي في الله: الذي مَضىٰ انقضىٰ بخيره وشره والله به عليم، فلماذا لا تبدأ من هذه اللحظة ببدءِ صفحةٍ جديدةٍ بيضاءَ مشرقةٍ، وتوبة صادقة ورجعة إلى الله تبارك وتعالىٰ.

كأن شيئاً لم يكن إذا انقضىٰ ... وما مضىٰ مما مضىٰ فقد مضىٰ

وتذكَّر الفضيل بن عياض فقد كان قاطعًا للطريق.. وكان يتعشق جارية.. فبينما هو ذات ليلة يتسوَّر عليها الجدار، إذ سمع قارئًا يقرأ قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فأطرق مليّاً.. ثم تذكر غدراته وذنوبه تذكر إسرافه، فما كان منه إلا أن ذرف دموع التوبة من عين ملؤها اليقين برحمة الله والتوبة الصادقة فتاب وأقلع عما كان عليه حتَّىٰ أصبح من أهل الخير والصلاح في زمنه كل ذلك بالتَّوبة الصادقة التوبة النصوح.

قم فتب إلى الله يا عبدالله واستدرك نفسك حتىٰ لا يكن حالك ما قاله بلال بن سعد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «ربّ مسرور مغبون يأكل ويشرب ويضحك وقد حقّ له

(١) حاشية (النصيحة) لعبد الله الملا (ص ١٦ ـ ١٧).

في كتاب الله تَبارك وتَعَالىٰ أنه من وقود النَّار»[١] انتهىٰ.

قال أبو حازم سلمة بن دينار - رضي الله عنه -: (كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه ثم لا يضرّك متىٰ مت)[٢] انتهىٰ.

قال أبو سُليمان الداراني - رحمه الله تعالىٰ -: قلت لأم هارون العابدة: أتُحبين أن تموتي؟ قالت: لا، قلت: ولِمَ. قالت: والله لو عَصيت مخلوقاً لكرهت لِقاءه فكيف بالخالق تَباركَ وتعالىٰ)[٣] انتهىٰ.

وكان الحسن البصري - رضي الله عنه - يقول: (من لم يمت فجأة مرض فجأة، فاتقوا الله واحذروا مفاجأة ربكم)[٤].

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عند الموت: (ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي).

ولما احتضر معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: (أعوذ بالله من ليلة صباحها النار، مرحباً بالموت مرحباً زائر مغب وحبيب جاء علىٰ فاقة، اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار؛ ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق العلم) انتهىٰ.

ولما احتضر أبو الدرداء - رضي الله عنه - جعل يقول: «ألا رجلاً يعمل لمثل مصرعي هذا) وبكىٰ، فقالت امرأته: أتبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟! فقال رضي الله عنه: (ما لي أبكي ولا أدري ما أهجم عليه من ذنوبي» انتهىٰ.

ولما احتضر أبو هريرة - رضي الله عنه - بكىٰ، فقيل له: ما يبكيك فقال: «بعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كؤود المهبط منها إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار» انتهىٰ.

وروي عنه - رضي الله عنه - أيضاً: أنه بكىٰ عند موته ثم قال: «والله ما أبكي

---

(١) الزمن القادم ٣/ ٤٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٠١٣٣.

(٣) (لحظات ساكنة) لعبدالملك القاسم (٧٥).

(٤) (لحظات ساكنة) لعبدالملك القاسم (٥٦ - ٥٧).

حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقكم، ولكن انتظر إحدى البشريين من ربي تبارك وتعالى: بجنة أم نار) انتهى.

وقيل لعبد الملك ـ رضي الله عنه ـ في مرضه الذي مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين فقال: (أجدني كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الانعام: ٩٤] انتهى.

ولما احتضر عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ قال: (إلهي أمرتني فلم أأتمر، وزجرتني فلم أنزجر، غير أني أقول: لا إله إلا الله) انتهى.

وبكى عامر بن قيس ـ رضي الله عنه ـ لما احتضر فقال: (إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء) انتهى.

وبكى يزيد الرقاشي ـ رضي الله عنه ـ عند موته فقيل له: ما يبكيك؟

فقال: (أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار) ثم جعل يقول: (يا زيد من يصلي لك؟ من يصوم عنك؟ من يتقرب لك إلى الله تبارك وتعالى بالأعمال؟ ويحكم إخواني! لا تغتروا بشبابكم فكأنكم قد حل بكم ما قد حل بي) انتهى.

وبكى بعض الزهاد رحمه الله تعالى عند موته. فقيل له: ما يبكيك؟

فقال: (أبكي أن يصوم الصائمون ولست فيهم، ويذكره الذاكرون ولست فيهم) انتهى.

وقال إبراهيم بن أدهم: مرض بعض العباد فدخلنا نعوده فجعل يتنفس ويتأسف فقلت له علام تتأسف؟ فقال: على ليلة نمتها، ويوم أفطرته، وساعة غفلت عن ذكر الله فيها.

وكان عبدالملك بن مروان ـ رضي الله عنه ـ يقول في مرضه: (لوددت أني عبد لرجل من تهامة، أرعى غنيمات في جبالها) انتهى.

وقال أبو محمد العجلي ـ رضي الله عنه ـ: دخلت على رجل وهو في الموت، فقال: (سخرت بي الدنيا حتى ذهبت أيامي) انتهى.

ولما احتضر معاوية - رضي الله عنه - جعل يقول: (إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذابا، ولا طوق لي بالعذاب، أو تجاوز فأنت رب رحيم عن مسيء ذنوبه كالتراب) انتهى.

ولما احتضر عضد الدولة جعل يقول: ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانية.

ولما احتضر الرشيد أمر بحفر قبره ثم أمر بحمله إليه، فاطلع فيه فبكى حتى ابتلت لحيته، ثم قال: (يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه) انتهى

كل شيء مصيره إلى الزوال   غير ربي وصالح الأعمال

هذا حال الدنيا يا أخي.

ولما حضرت محمد بن سيرين - رضي الله عنه - الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟

فقال: (أبكي لتفريطي في الأيام الخالية، وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية) انتهى.

ولما مرت بالحسن البصري - رضي الله عنه - جنازة قال: (يا لها من موعظة ما أبلغها وأسرع نسيانها، ويا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة) ثم قال: (يا غفلة شاملة للقوم كأنهم يرونها في النوم.. ميت غد يدفن ميت اليوم) انتهى[١].

قال عبدالعزيز بن أبي داود - رضي الله عنه -: دخلت على المغيرة بن الحكم في مرضه الذي مات فيه فقلت له: أوصني.

فقال - رضي الله عنه -: (اعمل لهذا المضجع) انتهى[٢].

لما حضرت عمر بن عبدالعزيز الوفاة جمع أبناءه السبعة أو الثمانية، فلما رآهم بكى واستعبر ودمعت عيناه، ثم قال لأبنائه: (والله ما خلفت لكم في الدّنيا شيئاً - وكانت عنده غرفة واحدة - فإن كنتم صالحين فالله تَبَارَكَ وتعالى يتولى الصّالحين، وإن كنتم فجرة، فلن أعينكم بمالٍ على الفجور) انتهى[٣].

---

(١) (لحظات ساكنة) ص ١١٨.

(٢) (لحظات ساكنة) ص ٩٤.

(٣) (اخترنا لك) لخالد الصقعبي (٢/ ٣٠).

قــال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: (أضـــحكتني ثلاث وأبكاني ثلاث: أضحكني: مؤملُ الدّنيا والموت يطلبه، وغافلٌ وليسَ بمغفولٍ عنهُ، وضاحك مِلْءَ فـيه ولا يـدري أراضٍ الله تبارك وتعالىٰ عنه أم ساخطٌ عليه. وأبكاني: فِراقُ الأحبّة محمدٌ وحزبه، وهولُ المَطلع، والوقوف بين يدي الله تبارك وتَعَالىٰ حين تبدو السرّائر، ثم لا أدري أجنّة أم نار) انتهىٰ.

وعن عمر بن عبدالعزيز أنه قال في أثناء مرضه الذي مات فيه أجلسوني فأجلسوه ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ثم رفع رأسه وأحد النظر فقالوا له إنك لتنظر نظراً شديداً، فقال: إني لأرىٰ حضرة ما هم بإنس ولا جان ثم قبض ـ رضي الله عنه ـ.

قال عبدالله بن عتبة رَحِمَهُ الله تعالىٰ: زرت رجلاً مريضاً فلما قعدت عنده قُلت له: كيف تجدك؟ فقال:

خرجتُ من الدنيا وقامت قِيامتي ... غــداة أقل الحــاملون جنازتي

وعجل أهلي حفر قبري وصيروا ... خروجي وتعجيلي أجلَّ كرامتي

كـأنَّهم لم يعـرفـوا قط صـورتي ... غــداة أتىٰ يومي عليَّ وليلتي (*)

أخي في الله:

فكما أنَّ للموتِ شِدَّة في أحواله وسكراته، وخطراً في خوفِ العاقبة كذلك الخطر في مُقاساة ظلمة القبر، وخطره إن كان مَغضوباً عليه، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه: من نفخ الصور، والبعث، ويوم النشور، والعرض علىٰ الجبار تَبَارَكَ وتَعَالىٰ، والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء، إما بالإسعاد أو بالإشقاء.

فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها، ثم الإيمان بها علىٰ سبيل الجزم

(*) وانظر للاستزادة [أحوال وأقوال للمحتضرين عند الموت من الصحابة والتابعين وخلفاء المسلمين والملوك والسلاطين والصالحين والطالحين] لقسم التحقيق بدار الحرمين ـ محققًا مخرجًا ـ.

والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك؛ لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد.

قال أبو الدرداء ـ رَضِي الله عَنْهُ ـ: «أحبّ الموت اشتياقاً إلىٰ ربي تَبارك وتعالىٰ، وأحب الفقر تواضعاً لربي تبارك وتعالىٰ، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتي» انتهىٰ.

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال أحمد بن عاصم ـ رحمه الله تعالىٰ: (هذه غنيمة باردةٌ أصلح ما بقي من عمرك يغفر لك ما مضىٰ) انتهىٰ.

ولله در القائل:

شيخٌ كبيرٌ له ذنوبٌ تَعجزُ عن حملها المَطايا
قد بيَّضت شَعره الليالي وسوَّدَت قلبه الخطايا

قال مُعاذ بنُ جبل ـ رضي الله عنه ـ: (إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا يسكن روعه حتىٰ يخلف جسر جهنم وراءه) انتهىٰ.

أخي في الله: تعال وفكِّر واسأل نفسك هذه الأسئلة:

متىٰ سأموت؟ هل إذا نمت الليلة سأستيقظ في الصباح؟ أم ستكون هذه النومة هي النِّهاية؟

قال لُقمان الحكيم ـ رضي الله عنه ـ لابنه: (يا بُني أمرٌ لا تدري متىٰ يَلقاك فاستعدَّ له قبل أن يفجأك) انتهىٰ.

واسأل نفسك: كيف أصلي الفجر في البيت وأتخلف عن جماعتها؟

عجبت من جسمٍ ومن صحّةٍ ومن فتىٰ نامَ عن الفجرِ
والموتُ لا يؤمن خَطفاته في ظلمِ الليلِ إذ يسري

فيا من ينام عن الطاعات ويقضي ليله كله في سباتٍ، خاطب نفسك وقُل لها: (يانفسُ كم تنامين؟!)، (يوشك أن تنامي نومة لا تقومين بعدها إلا لصرخة يوم النشور، وكفىٰ بالموت وطول الرقدة في القبور للمؤمنين رقاداً).

إنَّ النوم في القبورِ طويلٌ، والوقوفَ أمام الله تَبَاركَ وتَعَالىٰ أطول والخلود في

جنة أو نار أبد الآباد[1].

ولله در الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ حيث قال: (عباد الله.. ابذلوا في مرضات مولاكم المهج، واتبعوا الكتاب الذي أنزل، واسلكوا المنهج الذي نهج، وإن لحقتكم في عبادته شدة أو حرج فكم في الجنة من فرج) انتهىٰ.

هل أنا مخلد في الدنيا ولن أموت؟

ماذا سأقول لله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة إذ مت على هذه المعاصي وأنا لم أتب إليه تبارك وتعالىٰ منها.

إذا كنت أعرف أن هناك جنةً أو ناراً، فلماذا لا أخاف وأعمل عملاً صالحاً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون؟

هل أنا من أهل الجنة... أم من أهل النار؟

أيها العاصي من أنت:

إنما أنت عبد من عباد الله تبارك وتعالىٰ، خلقك من تراب وستدفن بعد موتك في التراب، فكيف تقصر في طاعته؟.

من أنت!؟ أنت عبد له تبارك وتعالىٰ، فأينا يأمر عبده بأمر فيحب أن يقصر فيه؟!

أنت الذي تسكن في أرض الله تبارك وتعالىٰ وتأكل رزقه، و الله تبارك وتعالىٰ لا يخفىٰ عليه شيء من أمرك.

أنت الذي خلقك لعبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

أنت الذي جعل الله تبارك وتعالىٰ لك الدنيا مزرعة تحصد ثمارها عند موتك وفي قبرك، وفي أهوال القيامة وفي الجنة أو النار.

أنت الذي ما بك من نعمة فمن الله تبارك وتعالىٰ.

أنت الفقير إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، والله تبارك وتعالىٰ هو الغني الحميد، أنت

(١) أقول أين من يتخلف عن صلاة الفجر في المسجد ويصليها في بيته يا لقاصمة الظهر وضياع العمر وشقاء الدهر وكفىٰ بتخلفه عن الجماعة نفاق وسوء خاتمته وكونه في ذمة الشيطان وبال الشيطان في أذنه وأصبح خبيث النفس كسلان وأفتتح يومه بمعصية الله نسأل الله السلامة وأن يعيننا على أنفسنا.

الذي كرمك الله تبارك وتعالىٰ علىٰ جميع مخلوقاته بالعقل حتىٰ تطيعه وتعبده علىٰ بصيرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

أنا الفقير إلىٰ رب السموات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن جاءنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس في دفع المضرات
وليس لي دونه مولىٰ يدبرني ... ولا شفيع إلىٰ رب البريات
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلىٰ شفيع كما قد جاء بآيات
ولست أملك شيئاً دونه أبدا ... ولا شريكا أنا في بعض ذرات
ولا ظهير له مما يعاونه ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات دائم أبدا ... كما الغنىٰ أبدا وصف له ذات
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آت
فمن بغىٰ مطلباً من دون خالقه ... فهو الظلوم الجهول المشرك العات
والحمد لله ملأ الكون أجمعه ... ما كان فيه وما من بعده يأت

أخي المسلم:

* إن النور واحد والظلمات متعددة، والحق واحد والباطل كثير، ومنها كثرت الفتن من حولك، فلتكن واثِقاً من أن الحق لا يضيع في هذه الغربة.

* لاتلتمس العزة في غير طاعة الله تَبَاركَ وتَعَالىٰ، ولا في غير منهجه، فإن العزة لله جميعاً.

* لا تغتر بإقبال الدنيا عليك، ولا تغتر بجاهك ومنصبك مهما عظما، فإن الله تَبَاركَ وتَعَالىٰ أعظم، واعلم بأنه كلما زاد تواضعك لله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ زادك الله تَبَارك وتَعَالىٰ عزاً.

دعني من ذكر أبٍ وجدِ ... ونسبٍ يعليك سور مجد
ما الفخر إلا في التقىٰ والزهدِ ... وطاعة تعطي جنان الخلد

* حافظ على الصلوات الخمس في الجماعة، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب، والشيطان يأكل من الغنم القاصية، والتخلف عن صلاة الجماعة بدون عذر(*) من علامات النفاق.

* اهتم بالقرآن الكريم حفظاً وتلاوة وفهماً وعملاً، فإن حظك من الإسلام على قدر حظك من القرآن.

* لا تُطع مخلوقاً ـ مهما كان ـ في معصية الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ. فالمؤمن إذ قال (ربي الله) لا يخضع لأحد سواه، ولا يسمع لأحد إلا الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ، ولا يُنفذ إلا أمره، ولو جاءه العالم كله ليملي عليه إرادته لقال: (أنا أسمع في غير معصية الله تَبارَك وتعالىٰ، أما حين تأمرني بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، والموت عندي أهون من معصية الله تبارك وتعالىٰ، لموت في طاعة الله تبارك وتعالىٰ خير من حياة في معصيته) هكذا المسلم فكن أنت ذاك.

* لا تُصاحب إلا الأتقياء، فإنهم أكبر عون لك على دينك ودُنياك يقول ﷺ: **«لا تُصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»**(١).

وقال ﷺ: **«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»**(٢).

ولله در القائل:

صحبة الصالحين بلسم قلبي ... هي للنفوس أعظم راقي

وقال الآخر:

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأردىٰ فتردىٰ مع الردىٰ

وإياك وجليس السوء فإنه يبعدك عن ربك ويشغلك عن طاعته، وإياك ومحبة الكفار والمنافقين، فإن من أحب قوما حشر معهم يوم القيامة.

(*) هذا الربيع بن خيثم أصابه في آخر حياته الفالج فكان يحمل إلىٰ الصلاة فقيل له: إنه قد رخص لك قال: قد علمت ولكني اسمع النداء بالفلاح.

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٣٢ والترمذي ٢٣٩٥ وحسنه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود والترمذي.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) وحسنه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود والترمذي.

ولربما جلسة مع رفقة السوء تدمر حياتك وتقضي على مستقبلك وتفسد عليك دنياك وأُخراك وتخسرهما. كان شاب مع الصالحين ثم تركهم بدأ يقصر في أمور دينه وفي يوم من الأيام كان مسافراً للتنزه وفي الطريق انقلبت السيارة.. ثم كان الإنعاش ثم مات، جاء الخبر المحزن إلى أهله وزملائه. صلوا عليه حمل إلى قبره ووضع فيه.. فاللبنات فالتراب لن يرجع ذرفت الدموع حزنت القلوب، حينها جلس أحد الصالحين وهو صديقه الأول عند قبره مطاطأ رأسه يدعو له.

أيها الشاب احرص على أن تلحق بالأخيار الذين ينفعونك حتى بعد موتك بدعائهم لك. الحق بهم صاحبهم واصبر معهم حتى تلاقي ربك فحينها يقال لك: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

يقول بلال بن سعد: «أخ لك كلما ذكرك بنصيبك من الله وأخبرك بعيب فيك أحب إليك وخير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك ديناراً».

واحسرتا تقض العمر وانصرمت ... ساعاته بين ذل العجز والكسل

والقوم قد أخذوا درب النجاة وقد ... ساروا إلى المطلب الأعلى على مهل

* اهتم بذكر الله تعالى في كل حين وعلى أي حال يجوز فيها الذكر.
* اهتم بغض البصر عن المحارم وأكثر من صيام التطوع إن استطعت.
* كن كيسا فطناً بصيرا بكل شأنك، حافظا لوعدك، معتزا بدينك مقبلاً على درسك، مبرزاً بين أقرانك، واثقاً بربك تبارك وتعالى.

يا غافلا يتمادى ... غدا عليه ينادى

وقال الآخر:

إلى كم ذا التراخي والتمادي ... وحادي الموت بالأرواح حادي

فلو كنا جمادا لا تعظنا ... ولكنا أشد من الجماد

تنادينا المنية كل وقت ... وما نصغي إلى قول المنادي

وأنفاس النفوس إلى انتقاص ... ولكن الذنوب إلى ازدياد

إذا ما الزرع قارنه اصفرار ... فليس دواؤه غير الحصاد

كـأنك بالمشيب وقد تسدىٰ وبالأخرىٰ مناديها ينادي
وقالوا: قد مضىٰ فأقروا عليه سلامكم إلىٰ يوم التناد

***

أيها النائم والركب سرىٰ إلحق القوم ولا تقعد ورىٰ

أسباب قسوة القلوب:(*)

ابن آدم كلامك مكتوب وقولك محسوب وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب وشمس الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسىٰ قلبك بين القلوب عبدالله العمر يسير وهو يسير فاقصر عن التقصير في التقصير ما هذا التقصير في العمر القصير أشرف الأشياء قلبك ووقتك فإذا أهملت قلبك وضيعت وقتك فقد ذهبت منك الفوائد لو كنت تبكي علىٰ ما فات فابك علىٰ نفسك.

ويبكي علىٰ الموتىٰ ويترك نفسه ويزعم أن قد قلَّ عنهم عزاؤه
ولو كان ذا رأي وعقل وفطنة لكان عليه لا عليهم بكاؤه

يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

فما أصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه.

وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب.

والله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢].

ومن أسباب قسوة القلوب:

* الانهماك في الدنيا وطغيان حبها وإيثارها علىٰ الآخرة وتغلغلها في القلب،

(*) وانظر مظاهر ضعف الإيمان وأسبابه وعلاجه ص١٧٣ من هذا الكتاب.

وإيثار الهوىٰ والنفس والدنيا علىٰ طاعة الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ .

* مجالسة البطالين ومرافقة من لا خير فيهم .

* كثرة الكلام بغير ذكر الله تبارك وتَعَالىٰ .

* كثرة الضحك .

* كثرة الأكل والشبع فوق الحاجة ، وإن كان مأكله ومشربه من حرام أو شبهه فأدهىٰ وأمر وأعظم وأشر .

فَقسوة القلوب من أربعة أشياءٍ : الأكل ، والنوم ، والكلام ، والمخالطة .

* كثرة الذنوب ، فما جفت الدموع إلا لقساوة القلوب ، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب ، ولا كثرت الذنوب إلا من كثرة العيوب يقول الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] .

وفي الحديث عنه ﷺ : **«إنَّ العَبْدَ إذا اخْطأ خَطيئةً نُكِتَتْ في قَلْبِهِ نُكتَةً سَوْدَاءُ فإذا هو نزعَ واستغفر وتَابَ صقِلَ قَلْبُهُ ، وإنْ زادَ زيدَ فيها ، حَتَّىٰ تَعْلُو قَلْبَهُ ، وهُو الرَّانُ الذِي ذَكَر الله : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»** .

رأيت الذنوب تُميت القلوب	**وقد يورث الذّل إدمانها**
وترك الذنوب حياة القلوب	**وخير لِنفسِك عصيانها**

* **وأما علاج قسوة القلوب فبأمور:**

(١) الإيمان الصّادق بالله تبارك وتعالىٰ ، وذلك بتحقيق كمال التوحيد وتجريد العبودية لرب العالمين ، فلا شرك ولا بدع ولا خرافات ولا معاص .

(٢) العلم بقدرة الله تبارك وتعالىٰ وعظمته وجلاله ، والعلم بأسمائه وصفاته العُلا .

(٣) قراءة القرآن وسماعه وتدبره والعمل به .

(٤) الإكثار واللهج وعدم الفتور وترطيب اللسان بذكر الله تبارك وتعالىٰ الذي يتواطأ عليه القلب واللسان .

(٥) المحافظة على الصلوات الخمس جماعة في المسجد بتكبيرة الإحرام، وقد قيل: (تفقد قلبك عند ثلاث: عند قراءة القرآن، وعند الذِّكر، وعند الصَّلاة، فإن لم تخشع فاسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يمنَّ عليك بقلب فإنه لا قلب لك) انتهىٰ.

وقيل: (دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومُجالسة الصالحين).

وذلك باستحضار عظمة من سيقف بين يديه في صلاته فلقد كان زين العابدين علي ابن الحسين بن علي كان إذا توضأ يصفر لونه، وإذا قام إلىٰ الصلاة ارتعد من الخوف فقيل له في ذلك، فقال: ألا تدرون بين يدي من أقوم ؟! ومن أناجي؟!

(٦) قيام الليل ولو ركعتين.

(٧) أكل الحلال والبعد عن الحرام وما فيه أدنىٰ شبهة.

(٨) رؤية الشيب في رأس العبد ولحيته.

(٩) بلوغ سن الأربعين.

(١٠) كثرة الموت ومفارقة الدنيا.

(١١) تشييع الجنائز وتغسيل الموتىٰ ومُشاهدة المحتضرين.

(١٢) عيادة المرضىٰ وتذكر المرض.

(١٣) زيارة القبور والتفكر في أحوالِ أهلها والاعتبار بها[١].

---

(١) من نظر إلىٰ القبور وأحوال أهلها انكسر قلبه، ولذلك لا تجد إنساناً يُحافظ علىٰ زيارة القبور مع التفكر والتأمل إذ يرىٰ الآباء والأمهات والإخوان والأخوات والأصحاب والخلان، يرىٰ منازلهم ويتذكر أنه قريباً سيكون بينهم وأنهم جيران بعضهم لبعض قد انقطع التزاور بينهم مع الجيرة، وأنه قد يتدانىٰ القبران وبينهما ما بين السماء والأرض نعيماً وجحيماً.

ما تذكر عبد هذه المنازل التي ندب النبي ﷺ إلىٰ ذكرها وزيارتها إلا رق قلبه من خشيته تَبَارَكَ وتعالىٰ، ولا وقف علىٰ شفير قبر فرآه محفوراً فهيأ نفسه.

علىٰ ماذا يُغلق؟ وعلىٰ من؟ وعلىٰ أي شيء؟ أيغلق علىٰ مطيع أم عاصي؟ أيغلق علىٰ نعيم أم جحيم؟ ما نظر عبد هذه النظرات ولا استجاشت في نفسه هذه التأملات إلا اهتز قلبه من خشية الله ومراقبته وعظمته وحيائه وإجلاله.

(١٤) تذكر يوم القيامة والعرض على الله تبارك وتعالى، وتذكر الجنة والنار والتفكير فيهما.

(١٥) التفكر في النعم ومطالعة آلاء الله تبارك وتعالى.

(١٦) إطعام المسكين ومسح رأس اليتيم والعطف عليهما.

(١٧) مُجالسة الصّالحين والخُلطاء الناصحين.

(١٨) حُضور مجالس العلم والذكر والوعظ وقراءة أخبار السلف الصالح وسيرهم.

(١٩) استحضار عقوبات الذنوب وقُبحها وشؤمها وضررها واستبشاع صورها.

(٢٠) تذكر مَصارع الظالمين، والنظر في ديار الهالكين، والاعتبار بمنازل الغابرين.

(٢١) الخوف من الله تبارك وتعالى إذا عَصاه فحينئذ إذا خاف منه امتنع من معصيته خوفاً منه تَبَارك وتَعَالى.

والخوف منه تبارك وتعالى أنواع منها:

١ـ الخوف من عدم القيام بكل ما أمر الله تبارك وتعالى.

٢ ـ خوف الانتكاسة ـ نسأل الله تَبَارك وتَعالى السلامة ـ.

٣ ـ خوف سوء الخاتمة ـ نسأل الله تبارك وتعالى الثبات ـ.

٤ ـ خوف فجأة ملك الموت قبل التوبة.

٥ ـ خوف الافتضاح عند الموت.

٦ ـ الخوف من سكرات الموت وآلامه.

٧ ـ الخوف من سؤال منكر ونكير، وفتنة القبر.

٨ ـ الخوف من عذاب القبر.

٩ ـ الخوف من هول المطلع.

١٠ ـ الخوف من هيبة الوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى.

١١ ـ الخوف من السؤال يوم العرض الأكبر على الله تبارك وتعالى عن الكبير والصغير والقليل والكثير.

١٢ ـ الخوف من الصراط وحدته وزلته وكيف يجوزه ويعبره.

١٣ ـ الخوف من وزن الأعمال بالميزان.

١٤ ـ الخوف من النار وأغلالها وأهوالها وعذابها.

١٥ ـ الخوف من حِرمان النظر إلى وجه الله الكريم في دار كرامته.

١٦ ـ الخوف من الحرمان من الجنة دار النعيم الدائم المقيم فالمسلم الخائف من الله تبارك وتعالى لا يغتر بعمله أبداً، ولا يعجب بنفسه بل يكون بين الخوفِ والرجاء.

٢٢ ـ الإلحاح والإكثار من الدعاء والاستمرار فيه. واللجوء إلى الله تبارك وتعالى والافتقار إليه، والإلحاح والتضرع بين يديه والإكثار منه، والاستمرار فيه والإنكسار بين يديه وطلب المعونة والمدد منه تبارك وتعالى.

قال الشاعر:

تنادينا المنية كل وقت ... وما نصغي إلى قول المنادي

وأنفاس النفوس إلى انتقاص ... ولكن الذنوب إلى ازدياد

إذا ما الزرع قارنه اصفرار ... فليس دواؤه إلا الحصاد

كأنك بالمشيب وقد تبدى ... وبالأخرى مناديها يُنادي

وقالوا: قد مضى فاقروا عليه ... سلامكم إلى يوم التنادي

فيا رب:

إن الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم عتقوهم عتق أحرار

وأنت يا خالقي أولى بذكر ما ... قد شبت في الرق فأعتقني من النار

فيا هذا:

دع طرق الغي ... فالدنيا فيّ

الكل يفنى ... والباقي حيّ

وأقول:

وفـــؤاد كلمـــا عـــاتبـــتـــه ... في مـدىٰ الهـجـران يبـغي تعـبي
لا أراه الـدهـر إلا لاهـيـــــاً ... في تماديه فـــقـــد برّح بي
يا قــرين الســوء مـا هذا الصبـا ... في العـــمـــر كـــذا في اللعب
وشـبـــاب بان عني فـمـــضىٰ ... قـــبل أن أقـــضي منه أربي
مـــا أرجي بعـــده إلا الفناء ... ضـــيّق الشـــيب عليَّ مطلبي
ويـح نفـــســـي لا أراها أبـداً ... في جـــمـــيـل لا ولا أدب
نفـسي لا كنت ولا كـان الهـوىٰ ... راقــبي المولىٰ وخـــافي وارهبي

ولله در القائل:

فـــانتـــبـــه من رقـــدة الغـــفـــ ... ــلة فـــالعـــمـــر قليل
واطـرح ســـوف وحـــتىٰ ... فـــهـــمـــا داءٌ دخـــيل

وقال آخر:

فـــمـــا أهل الحـــيـــاة لنا بأهل ... ولا دار الحـــيـــاة لنـا بـدار
ومـــا أمـــوالنا والأهل فـــيـــهـــا ... ولا أولادنـا إلا عـــــواري
وأنفـــســنا إلىٰ أجل قـــريـب ... ســيـأخـذها المعـيـر من المعـار

وقال آخر:

حكم المنيـــة في البـــرية جـــارٍ ... مـا هذه الدنيا بدار قرار حتىٰ يرىٰ
بينا الإنســـان فـيـهـا مـخـبـراً ... خـــبـــراً من الأخـــبـــار
فـــالعـــيش نوم والمنيـــة يقظة ... والمرء بينهـــمـــا خـــيـــال ســار
اليـوم تفـعـل مـا تشـاء وتشـتـهي ... وغـــدا تموت وترفع الأقـــلام

وقال الآخر:

أيضـمن لي الفـتىٰ ترك المعـاصي ... وأرهـنه الكفـــالـة بـالخـــلاص
أطاع الله قـــوم فـــاســـتـــراحـــوا ... ولم يتـجـرعـوا غـصـص المعـاصي

وقال الآخر :

شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب وضـاع وقـتك بين اللهـو واللعب

وقال الآخر :

بكيت على الشـبـاب بدمع عـيني فلـم يُغنِ البكـاء ولا النحــيب
فـيـا أسـفـاً أسـفت على الشـبـاب نعـاه الشـيب والرأس الخـضـيب
عـريت من الشـبـاب وكنت غـضـا كـمـا يعـرى من الورق القـضـيب
فـيـا ليت الشـبـاب يعـود يومـا فـأخـبـره بما فـعـل المشـيب

وقال الشاعر :

إذا عـاش امـرؤ سـتين عـامـا فنصف العـمـر تمحـقـه الليـالي
ونصف النصف يذهب ليس يدري لغـفلتـه يمينا وشـمـال
وباقي النصف أسـقـام وهـم وشـغل بالمكاسب والعـيـال

وقال الشاعر :

يا غـاديا في غـفلة ورائحـا إلى متى تسـتحـسن القـبـائحـا
وكم إلى كم لا تخـاف مـوقـفـاً يسـتنطق الله به الجـوارحـا
يا عـجـبـاً منك وأنت مـبـصـر كـيف تجنبت الطريق الواضـحـا

وقال شاعر :

متى يستقـيم الظل والعـود أعـوج وهل ذهـب صـرف يسـاويه بهـرج
ومن رام إخـراج الزكـاة ولم يجـد نصـابا يزكـيـه فـمن أين يخـرج
هي النفس والدنيا وإبليس والهوى بطاعـتـهـم عن طاعـة الله أزعج
أروح وأغـدو شـارباً كـأس غـفلة بماء الأمـانـي الكـواذب يمزج
وأمسي وأضـحي حاملا في بطاقتي ذنوبا تكاد الأرض منهن تخـرج
إذا قلت للنفس اسـتعـدي بتـوبة أبت وشـقـي الحظ لا يتـحـجج

وإن قلت للقلب استقم بي تعرضت ... له شهوات نارها تتأجج
فكم أتزيا بالعبادة والتقى ... رياء وباب الرشد دوني مرتج
أريد مقام الصالحين وليس لي ... كمنهجهم في الدين دين ومنهج
وإن حضر الإخوان للذكر والبكا ... حضرت كأني لاعب متفرج
فواخجلتي شيب وعيب وقد دنا ... رحيلي ولا أدري علام أعرج
وللمرء يوم ينقضي فيه عمره ... وموت وقبر ضيق فيه يولج
ويلقى نكيرا في السؤال ومنكرا ... يسومان بالتنكيل من يتلجلج
ولابد من طول الحساب وعرضه ... وهول مقام حره يتوهج
وديان يوم الدين يبرز عرشه ... ويحكم بين الخلق والحق أبلج
فطائفة في جنة الخلد خلدت ... وطائفة في النار تصلى فتنضج
فياشؤم حظي حين ينكشف الغطا ... إذا لم يكن لي من ذنوبي مخرج

* * *

رحلة ومصير

يا من يتــابع ســيــد الأكــوان ... كن للمـهـيمن قـائماً مـتـفـاني
واعلـم بأن خـــالقك الله الذي ... ســواك لـم يحـتج إلى إنســان
خلق الخليــقــة كلهـا من أجل أن ... تدعـــوه بالإخـــلاص والإيمان
قــد أرسل الآيات منه مـخـوفـا ... لعــبــاده كي يخلص الثــقــلان
وأبان للإنســـان كل طريقـــة ... كي لا يكون له اعــتــذار ثاني
ثم اقـتـضى أمـرا ونهـيـا علهـا ... تتـميـز التـقـوى عن العـصـيـان
وولدت مـــفطورا بفطرتك التي ... ليـست سـوى التـصـديق والإيمان
وبليت بالتكليف أنت مــخــيــر ... وأمـامك النجدان مـفـتـتحـان
فـعملت مـا تهـوى وأنت مـراقب ... مــا كنت مـحـــجـوبا عن الديان
ثم انقـضى العـمـر الذي تهنأ به ... وبدأت في ضـعف وفي نقـصـان
ودنا الفــراق ولات حين تهــرب ... أين المفــر من القــضـــاء الداني
والتف صـحـبك يرقبون بحسـرة ... مـــاذا تكون عـــواقب الحــدثان
واسـتل روحك والقلوب تقطعت ... حـزنا وألقت دمـعـهـــا العـينان
فـــاجـتـــاح أهل الدار حـزن بالغ ... واجتـاح من حضـروا من الجيران
فـالبنت عـبرى للفـراق كـئـيـبـة ... والدمع يملأ ســاحـــة الأجـفـــان
والزوج ثكلى والصـغـار تجمـعـوا ... يتطلعـــون تطلع الحـــيــــران
والابن يدأب في جــهــازك كــاتما ... شيـئـاً من الأحـزان والأشـجـان
وسرى الحديث وقد تساءل بعضهم ... أومــا ســمــعــتم عن وفــاة فــلان
قــالوا ســمــعنا والوفــاة سـبيلنا ... غـــيـــر المهـمين كل شيء فـــان
وأتى الحـديث لوارثيك فأسـرعـوا ... من كل صـــوت للحطام الفـــان
وأتى المغـــسل والمكفن قـــد أتى ... ليـــجللوك بحلة الأكـــفـــان

ويجـردوك من الشيـاب وينزعـوا عنك الحـــرير وحلة الكتـــان
لتعـود فـردا لست حـامل حـاجـة من هذه الدنيـا ســوى الأكـفـان
وأتى المخـبـر أن قـبـرك جـاهز فـــأتوا بنعش واهن العـــيــدان
صلوا عليك وأركـــبـــوك بمركب فـــوق الظهـــور يحف بالأحـــزان
حتى رأوا القبـر الذي لك جـهزوا ووضــعـوك عند شـفـيـره بحنان
وسـمـعت قرع نعالهم من بعـد ما وضعوك في البيت الصغير الثاني
جاء الظلام كذا السكون مـخيـمـا والروح رُدَّت وجـــاءك الملكان
وهنا الحـقـيـقـة والمحـقق قـد أتى هذا مــقـــام النصـــر والخـــذلان
إن كنت في الدنيـا لربك مـخلصـا تدعـــوه بالتـــوحـــيـــد والإيمان
فـتظل ترفل في النعـيم مـرفـهـا بفـــســـيح قـــبـــر طاهر الأركـــان
ولك الرفـيق عن الفـراق مـسليـا يغني عـن الأحـبـاب والأخـــدان
فـتــحت عليك من الجنان نوافـذ تأتيك بالأنـوار والريحــــــان
وتظل منشـــرح الفـــؤاد منعـمـــا حـتى يقوم إلى القـضـاء الثقـلان
تأتي الحساب وقد منحت صحيفة بالنور قـــد كـــتـــبـت وبالرضـــوان
وترى الخـــلائق خـــائفين لذنبـــهم وتســـيـــر أنت بعـــزة وأمـــان
ويـظـلـلـك الله الـكـريم بـظـلـه والـناس فـي عـــــرق إلى الآذان
وترى الصـراط وليس فيه صـعوبة كـالبـرق تعـبـر فـيـه نحـو الجنان
فـترى الجنان بحسنهـا وجمـالهـا وترى القصـور فيه رفيعة البنيان
طب في رغيـد العيش دون مشـقـة تكفى مـشـقـة سـالف الأزمـان
والبس ثياب الخلد واشرب واغتسل وابعـــد عـن الأكـــدار والأحـــزان
سِرْ وانظر الأنهـار واشـرب مـاءها وابعـــد عـن الأكـدار والأحـــزان
والشـهـد جـار في العـيـون مطهـر مع خـــمـرة الفـردوس والألبـان
والزوج حور في القـصـور كـواعب بيض الوجـــوه خـــوامص الأبدان

أبكار شبه الدّر في أصدافه والللؤلؤ المكنون والمرجان
وهنا مقراً لا تحول بعده فيه السرور برؤية الرحمن
أما إذا ما كنت فيها مجرماً متتبعاً لطرائق الشيطان
ثكلتك أمك كيف تحتمل الأذى أم كيف تبصر في لظى النيران
فإذا تفرق عنك صحبك وانثنى حمال نعشك جاءك الملكان
جاءاك مرهوبين من أعينهما ترمى بأشواظ من النيران
سالاك عن رب قدير خالق وعن الذي جاء بالقرآن
فتقول لا أدري وكنت مصدقاً وتقول شبه مقالة الثقلان
فيوبّخانك بالكلام بشدة وسيضربانك ضربة السجان
في الحر والظلمات تنظر مقعداً لك مستقراً داخل النيران
هذا إلى أن يبعث الله الورى يوم التخاصم عند ذي الإحسان
يوم القيامة بالشدة هوله تبيض منه مفارق الولدان
يوم القيامة لو علمت بهوله لفررت من أهل ومن أوطان
يوم تسير له الجبال وتنطوي فيه السماء ويجمع القمران
وترى البحار وقد تأجج ماؤها وغلى فغطى جوها بدخان
فتقوم للحشر الخلائق كلها متوجهين إلى عظيم الشأن
وتجيء مكتئباً حزيناً خائفاً تبكي بدمع سائل هتان
تلقى الصحيفة بالشمال ولا ترى فيها سوى الأكدار والأحزان
وتخبر الله الجوارح بالذي فعلته من جور ومن عصيان
وهناك تسحب للجحيم مكبلا بسلاسل ومسربل القطران
يضعونك في نار كأن دخانها قصر ولكن لست منه بهان
فيها من الأهوال شيء مفزع فيها من الحميم أعد للظمآن
فيها الأفاعي والهوام كأنها أعجاز نخل داخل النيران

والريح منتنة وجسمك منهك — والحر منصب على الأبدان
والخلق في ضيق فذا متشفع — وهناك مغشي وذاك يُعاني
والنار مطبقة وليس بناصب — لهب لها فاصبر مدى الأزمان
خلد وليس ذاك الخلد يا فتى — لا راحة تُرجى ولست بفاني
يا شارب الخمر المحب لشربها — يا من عليه دائم الإدمان
بالإمس تشرب من مدامة شارب — واليوم فاشرب من حميم آن
يا ظالماً يا فاسقاً يا مجرماً — هذا جزاءُ الظلم والعدوان
تشوي الجلود إلى العظام وتنبري — لتعود تثبت للحريق الثاني
يا هاجر القرآن حسبك عبرة — هذا الجزاءُ لهاجر القرآن
يا تارك المفروض في أوقاته — متذرعاً بالشّغل والنسيان
أدخل من الكفار نار جهنم — واصحب إليها عابد الأوثان
هذا مآل الناس فليعمل له — راجي الجنان وراهب النيران
يا غافلاً عما خُلِقت له انتبه — جد الرحيل فلست باليقظان
ولسوف تعلم حين ينكشف الغطاء — ماذا صنعت وكنت ذا إمكان
كل سيحصد غرسه بيمينه — لا يظلم المولى بني الإنسان
من رام طيب الورد يغرس بذره — لا يُجتنى ورد من السعدان
يا رب فارحمنا وخفف أوزارنا — وامنن علينا ربّ بالإحسان

***

ليس الغريب

قال علي زين العابدين[١] رضي اللهُ عنهُ:

لَيسَ الغَريبُ غَريبَ الشّامِ واليَمَنِ ... إنَّ الغَريبَ غَريبُ اللَّحدِ والكَفَنِ

تَمُرُّ ساعاتُ أيامي بلا نَدَمٍ ... ولا بُكاءٍ ولا خَوفٍ ولا حَزَنِ

سَفَري بَعيدٌ وزادي لا يُبَلِّغُني ... وقَسْمَتي لم تزَلْ والموتُ يَطلُبُني

ما أحلَمَ اللهَ عني حَيثُ أمهَلني ... وقد تماديتُ في ذنبي ويستُرني

أنا الذي أُغلِقُ الأبوابَ مُجتهداً ... علىٰ المعاصي وعينُ الله تنظُرُني

يا زَلّةً كُتِبت يا غَفلةً ذَهبت ... يا حَسرةً بَقِيت في القلبِ تَقتُلني

دع عنكَ عَذلي يا من كانَ يَعذِلُني ... لو كنتَ تعلَمُ ما بي كُنتَ تَعذُرُني

دَعني أنوحُ علىٰ نفسي وأندِبُها ... واقطعُ الدَّهرَ بالتّذكارِ والحَزَنِ

دعني أسِحُّ دُموعاً لا انقطاعَ لها ... فَهَلْ عَسَىٰ عَبرَةٌ مِنها تُخَلِّصُني

كأنني بين تَلكَ الأهلِ مُنطرَحاً ... علىٰ الفِراشِ وأيديهم تُقلِّبُني

وقد أتوا بطَبيبٍ كَي يُعالجَني ... ولم أرَ مِن طَبيبِ اليومِ يَنفَعُني

واشتدَّ نزعي وصارَ الموتُ يَجذِبُها ... مِنْ كُلِّ عِرقٍ بلا رِفقٍ ولا هون

واستخرجَ الرّوح مني في تغرغُرها ... وصارَ في الحلقِ مراً حين غرغرني

وغمّضوني وراح الكل وانصرفوا ... بعدَ الإياسِ وجَدّوا في شِرا كَفَنِي

وقام من كان أولىٰ النّاس في عَجَلٍ ... إلىٰ المُغسلِ يأتيني يُغسّلُني

وقال يا قومُ نبغي غاسلاً حَذِقاً ... حُراً أديباً أريباً عارفاً فطِنِني

فجاءَني رجُلٌ منهم فجرّدني ... مِنَ الثّيابِ وأعراني وأفردني

---

(١) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ الله عَنْهُمْ أجمَعِينَ ـ.

واطرحــوني على الألواحِ مُنفـرداً ... وصـار فـوقي خـريرُ الماءِ يُنظِفُني
واسْكَبَ الماءَ مِن فـوقي وغَـسَّلني ... غَـسـلاً ثلاثاً ونادى القَـومَ بالكَفَنِ
والبسـوني ثيـاباً لا كُـمـومَ لهـا ... وصـار زادي حنوطاً حينَ حَنَّطَني
وقدَّموني إلى المحـرابِ وانصرفوا ... خَلفَ الإمـامِ فـصلَّى ثم ودَّعَني
صَلوا عليَّ صـلاةً لا رُكـوعَ لهـا ... ولا سـجـود لعلَّ الله يرحـمني
وأنزلوني في قـبـري على مـهلٍ ... وأنزلوا واحـداً منهم يُلَحِّـدُني
وكَشَفَ الثَّوبَ عن وجهي لينظرني ... وأسبَلَ الدَّمعَ مِن عـينيـهِ أغـرقني
فـقام مـحـترمِاً بالعَزمِ مُشتَمِلاً ... وصَفَّف اللَّبِنَ من فـوقي وفـارقني
وقال هُلُّوا عليه التُّرابَ واغتَنِموا ... حُسنَ الثَّوابِ مِن الرَّحمن ذي المِنَنِ
في ظلمـة القـبـرِ لا أمٌّ هناك ولا ... أبٌ شَـفـيـقٌ ولا أخٌ يؤنِّسُني
وأودعـوني ولَجُّوا في سؤالِهِمـو ... مـا لي سِـواك إلهي مَن يُخَلِّصُني
وهالني صـورةٌ في العينِ إذ نَظَرت ... مِن هولِ مَطلَعَ ما قد كـانَ أدهشني
مِن منكرٍ ونكيـرٍ مـا أقـول لهم ... إذ هالني منهـمـا مـا كـان أفـزعني
فـامنُن عليَّ بِعَـفـوٍ منك يا أملي ... فــإنَّني مــوثَقٌ بالذَّنبِ مُــرتَهَنُ
تَقاسَمَ الأهلُ مالي بعدما انصَرفوا ... وصارَ وزري على ظهري فأثقلني
فـلا تَغُـرنَّك الدُّنيـا وزينتُـهـا ... وانظر إلى فِعلِها في الأهل والوطن
وانظر إلى من حوى الدّنيا بأجمعها ... هل راحَ منهـا بغـيـرِ الزّادِ والكَفَنِ
خُـذ القناعـة من دنيـاك وارض بهـا ... لو لـم يكُنْ لكَ إلا راحـةُ البـدنِ
يا نفسُ كُفّي عن العِصيان واكتَسبي ... فِـعـلاً جـمـيـلاً لعلَّ الله يرحـمني

***

توبة وندم

أنا العبد الذي كسب الذنوبا وصدّته الأماني أن يتوبا
أنا العبد الذي أضحى حزينا على زلاته قلقاً كئيبا
أنا العبد الذي سُطِرَت عليه صحائف لم يخيف فيها الرقيبا
أنا العبد المسيء عصيت سراً فمالي الآن لا أبدي النَّحيبا
أنا العبد المفرط ضاع عُمري فلم أرعَ الشبيبة والمشيبا
أنا العبد الغريق بلُجٍّ بحر أصيح لربما ألقى مُجيبا
أنا العبد السقيم من الخطايا وقد أقبلت ألتمسُ الطبيبا
أنا العبد المخلف عن أناس حووا من كل معروف نصيباً
أنا العبد الشريد ظلمت نفسي وقد وافيت بابكمو منيبا
أنا العبد الفقير مددت كفي إليكم فادفعوا عني الخطوبا
أنا الغدار كم عاهدت عهدا وكنت على الوفاء به كذوبا
أنا المقطوع فارحمني وصِلني ويسر منك لي فرجاً قريبا
أنا المضطر أرجو منك عفوا ومن يرجو رضاك فلن يخيبا
فوا أسفا على عمر تَقَضَّى ولم أكسب به إلا الذنوبا
وأحذر أن يعاجلني ممات يحير هول مصرعه اللبيبا
ويا حُزناه من حشري ونشري يوم يجعل الولدان شيبا
تفطَّرت السَماء به ومارت وأصبحت الجبال به كثيبا
إذا ما قُمْت حيرانا ظميئاً حسير الطرف عريانا سليبا
ويا خجلاه من قبح اكتسابي إذا ما أبدت الصحف العيوبا
وذلة موقف وحساب عدل أكون به على نفسي حسيبا

ويا حذراه من نار تلظى — إذا زفرت وأقلقت القلوبا
تكاد إذا بدت تنشق غيظا — على من كان ظلاما مريبا
فيا من مد في كسب الخطايا — خُطاهُ أما يألك أن تتوبا
ألا فاقلع وتب واجهد فإنا — رأينا لكل مجتهد نصيبا
وأقبل صادقاً في العزم واقصد — جنابا للمنيب له رحيبا
وكن للصالحين أخا وخلا — وكن في هذه الدنيا غريبا
وكن عن كل فاحشة جبانا — وكن في الخير مقداما نجيبا
فمن يخبر زخارفها يجدها — مخالبة لطالبها خلوبا
وغض عن المحارم منك طرفا — طموحا يفتن الرجل الأريبا
فخائنة العيون كأسد غاب — إذا ما أهملت وثبت وثوبا
ومن يغضض فضول الطرف عنها — يجد في قلبه روحا رطيبا
ولا تطلق لسانك في كلام — يجر عليك أحقادا وحوبا
ولا يبرح لسانك كل وقت — بذكر الله ريانا وطيبا
وصل إذا الدجى أرخى سدولا — ولا تضجر به وتكن هيوبا
تجد أنسا إذا أودعت قبرا — وفارقت المعاشر والنسيبا
وصم ما تستطيع تجده ريا — إذا ما قمت ظمآنا سغيبا
وكن متصدقاً سراً وجهراً — ولا تبخل وكن سمحا وهوبا
تجد ما قدمته يداك ظلا — إذا ما اشتد بالناس الكروبا
وكن حسن السجايا وذا حياء — طليق الوجه لا شكسا غضوبا

***

يا نفس توبي

خل إدكار الأربع — والمعهد المرتبع
والظاعن المودع — وعد عنه ودع
واندب زمانا سلفا — سودت فيه الصحفا
ولم تزل معتكفا — على القبيح الشنع
كم ليلة أودعتها — مآثما أبدعتها
لشهوة أطعتها — في مرقد ومضجع
وكم خطى حثثتها — في خزية أحدثتها
وتوبة نكثتها — لملعب ومرتع
وكم تجرات على — رب السموات العلى
ولم تراقبه ولا — صدقت فيما تدعي
وكم غمصت بره — وكم أمنت مكره
وكم نبذت أمره — نبذ الحذا المرقع
وكم ركضت في اللعب — وفهت عمدا بالكذب
ولم تراع ما يجب — من عهده المتبع
فالبس شعار الندم — واسكب شآبيب الدم
قبل زوال القدم — وقبل سوء المصرع
واخضع خضوع المعترف — ولذ ملاذ المقترف
واعص هواك وانحرف — عنه انحراف المقلع
إلام تسهو وتني — ومعظم العمر فني
فيما يضر المقتني — ولست بالمرتدع

أمـــا تـرىٰ الشـــيـب وخـط ... وخـــط فـــي الـــرأس خـــط
ومن يلـح وفـــد الشـــمط ... بفـــوده فـــقـــد نـعىٰ
ويـحك يـا نفس احـــرصي ... علىٰ ارتـيــــاد المخلـص
وطـــاوعـــي وأخـــلـــصـــي ... واســتـمــعي النصح وعي
واعـــتـــبـــري بمن مـــضىٰ ... من الـقـــرون وانـقـــضـي
واخـشي مـفـاجـأة القـضـاء ... وحـــاذري أن تـخـــدعي
وانتــهــجي ســبل الهــدىٰ ... وادكـــــري وشـك الـردىٰ
وأن مـــثـــواك غـــدا ... في قـــعـــر لحـــد بلقع
آه لـــه بـــيـــت الـــبـــلـىٰ ... والمنزل القـــفـــر الخـــلا
ومـــورد الســـفـــر الألىٰ ... والـلاحـق المتـــــبـع
بـيـت يـرىٰ مـن أودعـــــه ... قـــد ضـمـــه واســتـــودعـــه
بعـد الفـضـــاء والسـعــة ... قـــيـــد ثـلاث أذرع
لا فـــــرق أن يـحـلـه ... داهـيـــــة أو أبـلـه
أو مـــعـــســـر أو من لـه ... مـلـك كـــمـلـك تـبـع
وبعـــده الـعـــرض الذي ... يحـــوي الحـــيي والبـــذي
المبـــتـــدي والمحـــتـــذي ... ومـــن رعـىٰ ومـــن رعـــي
فـــيـــا مـــفـــاز المتـــقي ... وربح عـــبـــد قـــد وقي
ســـوء الحـــســاب الموبق ... وهـول يـوم الـفـــزع
ويا خـــســـار من بغىٰ ... ومـن تـعـــدىٰ وطـغـىٰ
وشـب نـيـــران الـوغىٰ ... لمـطـعـم أو مـطـمـع
يـا مـن عـلـيــه المتـكـل ... قـــد زاد مـــا بي من وجـل
لما اجـــتـــرحت مـن زلـل ... في عـــمـــري المضـــيـع
فـاغـفـر لعـبـد مـجـتـرم ... وارحـم بكـاه المنســجـم
فـــأنـت أولـىٰ مـن رحـم ... وخـــيـــر مـــدعـــو دعي

فيا من تعد عليه الأنفاس عداً ولا يستطيع لماضيها ردا، ولا تجد من تناهيها بدا، العمر يمر مر السحاب، ما مر منه لايعود، وما تبقى للذهاب، والمهلة تخدع خدع السراب، والذاهب ليس له إياب، والموعد يوم الحساب، تجهز فقد حدا الحادي بالركاب، وتهيأ لسكن التراب.

أما الدنيا فقد تباعدت، وأما الآخرة ففي اقتراب، كيف البقاء وقد ولدت والموت مني في اقتراب، قد آن لي أن أستعد لمصرعي تحت التراب، وأجود العمل الذي أنجو به يوم الحساب، أترى. . بأي يوم أو في تقرير كتابي، إن كان باليمين: فيا طوبى ويا حسن مآب، أو كان باليسرى: فيا ويل ما ألاقي من عذاب[1].

ولله در القائل:

يا ويح قلبي ما استتاب ... مما جنت يد الشباب

يا خجلتي يوم الحساب ... من ناقد يحصي علي

وعلى المسلم أن يراقب نفسه فيم قضى وقته؟ وكيف قضاه؟ ومراقبة النفس أشبه بشريط التسجيل، فلو أنك تعلم علم اليقين أن الشريط قد وضع إلى جانبك يسجل كل كلمة ينطق بها لسانك من خير أو شر فإنك في مثل هذه الحال تبقى دائم الاحتراز والانتباه واليقظة ولا تتكلم إلا بعد تفكير وتدبر وبعد أن تزن ما تقوله كي لا يسجل عليك إلا ما تحب وترضى. . . فاذكر قول الله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

حاسب نفسك ما دمت في دار العمل، وما زال الأمر به فسحة قبل أن لا ينفع الندم، قبل الفراق وقبل دنو الأجل، ما الذي يحول بينك وبين محاسبة نفسك ألم تعلم أنك ستقف غدا للحساب والجزاء بين يدي جبار السموات والأرض في يوم مقداره خمسين ألف سنة.

العمر قصير والزاد قليل ويوم القيامة طويل، فماذا أنت صانع يا عبدالله؟! انتبه

---

(١) التذكرة لابن الجوزي (٢٥٢).

قبل الرحيل والوداع.

فناج ربك عبدالله بقلب وجل ولسان صادق وناده وقل: (واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً، ويلي كلما طالت أيامي كثرت ذنوبي وآثامي، ويلي كلما كبرت سني عظمت ذنوبي، فمن كم أتوب، وفي كم أعود، واشباباه واشباباه، أتراك يا رب منقذاً لرقبتي من سخطك! أتراك مقيلي من عثرتي، أتراك منجيني من نارك أو معذبني بعذابك، أتراك موبخي على رؤوس الخلائق بتفريطي في حقك! أواه من كشف عورتي، أواه لحياء وجهي، أواه لما يلقاه غداً في النار جسدي.

عصيت الله أيامي وليلي وفي العصيان قد أسبلت ذيلي
فويلي إن حرمت جنان عدن وويلي إن دخلت النار ويلي

فأقول رثاء لحالتي كما قال الألبيري ـ رَحِمهُ اللهُ تَعَالىٰ ـ:

يمر لداتي واحداً بعد واحد وأعلم أني بعدهم غير خالد
وأحمل موتاهم وأشهد دفنهم وكأني بعيد عنهم غير شاهد
فما أنا في علمي بهم وجهالتي لمستيقظ يرنو لمقلة راقد

***

أزف الرحيل وليس من زاد غير الذنوب لشقوتي ونكادي
يا غفلتي عما جنيت وحسرتي يوماً ينادي للحساب منادي
غلبت عليَّ شقاوتي ومطامعي حتى فنيت وما بلغت مرادي
يا غافلاً عما يراد به غداً في موقف صعب على الروادِ
اقرأ كتابك كل ما قدمته يحصى عليك لصبيحة الميعاد
كيف النجاة لعبد سوء عاجز وعلى الجرائم قادر معتاد
يا غافلاً من قبل موتك فاتعظ والبس ليوم الجمع ثوب حداد

***

هل أعددنا الزاد(*)

سفر بلا وطن، وممر بلا مقر.. نجهز رحالنا! ولكن لا ندري متى تقلع أجسادنا عن الحياة..؟ نعد الزاد لذلك الوطن السرمدي ولا نعلم متى الرحيل؟ وأين نهاية هذه الرحلة؟!!

لكن لنقف مع أنفسنا لحظات فقد مضت سنة، بل سنوات وكأنَّها تقول للجميع وداعًا بلا رجعة.. تراكمت ساعاتها حلوها ومرها، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها في تلك الصحيفة التي تحملها أكتافنا.. كل ذلك ولا نفكر فيما مضى، فيما سيتقدم لنا.. ماذا عملنا وماذا سنقدم لأنفسنا؟!!

سؤال يتردد على ذهني في كل لحظة وفي بداية كل عام جديد!! بل الكثير من الناس، ولكن أين الجواب؟ وماذا يا ترى سيكون الرد؟! هل فعلاً فكرنا لحظة في تلك السنة التي مضت وما قدمناه من أعمال؟! هل نحن راضون عنها كل الرضا، فقط لنراجع ولو يومًا واحدًا منها!!

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها!
إن السفينة لا تجري على اليبس

ما أمر سويعات نقفها مع أنفسنا لحظات هدوء وجداني.. لنراجع منها فقط أعمارنا!! نعم صدقوني لن يُسأل أي إنسان على وجه الأرض هذه الأسئلة إلا وعيناه تغرقان بالدموع ولسان حاله يقول:

دعني أمسح دموعًا لا انقطاع لها
لو كنت تعلم ما بي تعذرني

فماذا يا ترى قدمنا للحظات السفر الطويل الذي لا ندري متى وقوعه!!؟

فهذا الفضيل بن عياض لما حضرته الوفاة - رحمه الله - غشي عليه ثم أفاق

---

(١) مجلة الدعوة العدد ١٧٩٣/ ٢٢ صفر ١٤٢٢هـ ص ٧٠ لأم ياسر السر.

وقال: «يا بعد سفري وقلة زادي». فما زادنا نحن وهذه الدنيا تلهينا، والشيطان يغوينا، فيا ليت سؤالي من ينجينا في تلك اللحظة وليس معنا إلا سيئات ومنكرات ونحن نحسب أنَّها حسنات وطاعات، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧].

فنحن نعمل ولكن هل ما عملناه سيقبل منَّا؟ هل سينجينا؟!! حقا يأتي المرء لحظات يحس فيها أنَّه راضٍ عن ولو عن جزء بسيط من عمله ولكن هيهات:

لم ينسه الملكان حين نسيته

بل سجلاه وأنت لاه تلعب

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

فهل فكرنا في هذين الملكين؟! في كل كلمة، في كل همسة معنا لا يغفلان ولا يكلان كل ما عليهما تدوين أقوالنا وأفعالنا في السر والعلن.. فهل رضينا عن أعمالنا طوال تلك السنين ونحن متناسين هذين الكاتبين!! لا والله فماذا قدمنا للموت وسكراته!!

هل استعدينا لذلك الموقف؟ لن ينفعنا البكاء في ذلك اليوم الرهيب الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترىٰ الناس سكارىٰ من شدته وهوله وعظمته فماذا عسانا نقول عند لحظات الاحتضار.

فهذا معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة يقول: «أعوذ بالله من ليلة صباحها إلىٰ النَّار»، ثم قال: «مرحبًا بالموت زائر مغيب وحبيب جاء علىٰ فاقة اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك أنَّك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكدي الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لمزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر..».

فبالله عليكم من منا الآن لا يحب الدنيا.. لنصدق مع أنفسنا ونحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب قبل أن نتحسر علىٰ تلك السنين التي مضت من أعمارنا، كل

ذلك نريد فقط العودة لنعمل صالحًا ولكن ما ذا ينفع الندم ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

هل فكرنا لحظة واحدة في سكرات الموت إنَّها والله لحق فهذا نبينا ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ يمسح وجهه الطاهر بالماء وهو يقول: «**لا إله إلا الله إن للموت سكرات**» [رواه البخاري] فهذا نبي الأمة غفرت ذنوبه وهذه حال سكرات الموت معه فما حالها وعنا؟!!

إني والله أتعجب لحالنا!! ألا نعتبر بالقبور وأصحابها أين كانوا وما هي منازلهم الآن؟ ما مصيرهم؟ كل على حسب عمله فماذا عملنا لأنفسنا.. لا شيء، فهؤلاء الصحابة وهم من خاضوا مع الرسول ﷺ مسيرته تئن قلوبهم خوفًا من ذلك الموقف وكذلك التابعون والصالحون.

فهذا الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز لأثر البكاء على خديهما خطان كل ذلك من شدة الخوف من النار حتى قيل إنَّها لم تخلق إلا لهما.. فما حالنا مع النار وعذاب القبر وعذابه والصراط وزلته والحشر وشدته والنار وأهوالها وماذا.. الكثير والكثير.. كل ذلك ونحن نحلق في أعماق الفضاء لنبني قصوراً من الخيال والأماني، لكن لماذا لا ننظر تحت!! لتلك الذرات الصغيرة من التراب فصدقوني من يتأملها سيجد وبلا شك نفسه فيها ومنها وإليها وما أحقرنا ولكن لا نعقل!! فإلى الله المشتكى من نفوسنا اللاهية!!

من منَّا لا يخطيء.. من منَّا ليس عليه ذنوب ومعاص.. من منَّا لم تشغله الدنيا بشهواتها عن ذكر الله وطاعته.. عن محاسبة نفسه في يومه.. ذكر النبي ﷺ في حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال النبي ﷺ: «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**». [رواه الترمذي].

فليس هناك أحد منزه عن الخطأ مهما علا ومهما نرى عليه من علامات الصلاح إلا من رحم ربي، فلنعقد مع أنفسنا عهداً على التوبة قبل سكون الوطن الأبدي وقبل نهاية الرحلة.

من الآن لنحاول بدعوة خاشعة ودموع خائفة وراجية أن نغسل أجسادنا بتوبة صادقة قبل أن تغسل أجسادنا بغيرنا ونحن نحمل أثقالاً ترمي بنا إلى الهاوية!

فهذا وعد الحق لنا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر: ٥٣].

وتأكد أنَّه لا يأس مع أمل، فهذا قول الحق ينير لنا طريقًا بالمغفرة التي وسعت كل شيء، فلماذا نسرف على أنفسنا بالمعاصي والله معنا!!.

* * *

دعــوة

دعوة لمحاسبة النفس . . فالأيام تمر، والصفحات تنطوي، والأعوام تتوالى، وكل منًا يستطيع أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويأخذ من سنين عمره المنصرمة المواعظ والعبر وأن يراقب الله .

فها هي الأيام تركض، وهكذا الأيام تجري من غير أن تحس ولا تدري إلا عند بداية سنة أو قدوم الشهر الكريم أو العيد .

والسؤال الأهم :

* ماذا أعددنا للرحلة النهائية؟
* ماذا قدمنا لأنفسنا من خير لنجده عند الله خير ثواب وخير أمل؟
* ماذا سجل في صحائفنا؟
* ماذا أعددنا للحفرة التي سنوضع فيها؟
* هل تذكرنا اليوم الموت والقبر؟
* هل قرأنا شيئًا من القرآن؟
* هل ثابرنا على الأذكار والأوراد دبر كل صلاة؟
* هل كنًا خاشعين في الصلاة؟
* هل سألنا الله الجنَّة، واستعذنا به من النار؟
* هل استغفرنا الله اليوم من ذنوبنا؟
* هل تجنبنا كل ما لا يرضي الله - عزَّ وجلَّ -؟
* هل فكرنا بالتباعد عن قرناء السوء؟
* هل نظَّفنا قلوبنا من الكبرياء والحسد والحقد؟ وألسنتنا من الغيبة والنميمة والكذب؟

❊ هل تركنا النظر إلى ما حرم الله؟

❊ هل تركنا سماع ما حرم الله؟

❊ هل أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر؟

❊ هل بذلنا الغالي والرخيص من أجل نصرة ديننا والعمل له؟

وهل . . وهل . . وهل . . ؟

دعو صادقة لكل إنسان أن يحاسب ويعد زاده للرحيل الأخير .

***

أهمية التوحيد
والعقيدة الصحيحة

أهمية التوحيد والعقيدة الصحيحة

ولما كان أساس وأصل وقاعدة وركيزة التزود هو العقيدة الصحيحة أردفت كلاماً لسماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن باز فيما يتعلق بالعقيدة الصحيحة وفتاوى مهمة بصددها، ثم ثنيت بذكر أمور لاحظت وقوع بعض الشباب الملتزم فيها مما يخل بالتزامه وربما أدّت إلى انتكاسته ذكرتها تنبيهاً وتنويهاً وتذكيراً. وقبل ذكر كلام سماحة الوالد وحيث أن العقيدة الصحيحة تقتضي تجريد التوحيد لرب العالمين أحببت التنويه بشأن التوحيد ومنزلته وواقع أكثر المسلمين في هذا الزمان.

فأقول: أقصد بالتوحيد:- إفراد الله بالعبادة، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة لا كما يفسره أهل المذاهب الباطلة- من أنه يكتفي بالإقرار بتوحيد الربوبية وأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر.... الخ، دون توحيد الألوهية وأقول: إن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، بمعنى أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الألهية والقيام بها، فمن عرف أن الله ربه وخالقه ومدبر أموره وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له، ومن أقر بتوحيد الربوبية فقط فهذا هو توحيد أبي أجهل وأبي لهب وعامة المشركين، فهم يقرون بتوحيد الربوبية، والخصومة بينهم وبين رسلهم إنما هي في توحيد الألوهية يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه من كل ما ينزه عنه وأقر بأنه خالق كل شيء لم يكن موحداً بل ولا مؤمناً حتى يقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له)[1].

وقد أخطأ من فسر لا إله إلا الله أنه لا معبود إلا الله فإنه عبد من دون الله الكثير الكثير، ولكن الصحيح هو قولنا: لا معبود بحق إلا الله حتى يخرج عبادة كل من

---

(١) [درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٦٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية].

والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (٣٤-٣٨) لابن فوزان.

عبد من دونه لأنها باطلة، والتوحيد هو حق الله عز وجل الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين، وأصل الأصول كلها وأساس صحة الأعمال، وأنه الفرض الأعظم على جميع العبيد، ومن ظن أنه غني عن التوحيد فهو غني عن دين الله، وعلم التوحيد هو العلم الأساسي الذي تجدرُ العناية به تعلماً وتعليماً لأنه يتعلق بذات الله عز وجل، وشرف كل علم بمتعلقه، لذا يجب على المسلم تحقيقه وتصفيته وتخليصه من شوائب الشرك والطقوس البدعية والخرافات وغيرها، وإفراد العبودية لله وحده قبل أي عبادة من صلاة أو صيام ونحوهما. . . ، لأن من شروط قبول العمل أن يكون مبنياً على عقيدة صالحة، فإذا بُنِي العمل على غير ذلك فلن يقبل من صاحبه أي عمل، والعبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، بل لا يسمى الإنسان مسلماً إلا بالتوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة، فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه في النار أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال الله عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

وأقول: إن أول ما يجب على العاقل البالغ معرفته هو التوحيد فالعلم الواجب ابتداءً التوحيد، وهو أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم.

كفانا بالنبي ﷺ أسوة وقدوة، إذ بدأ دعوته بالتوحيد بل مكث ثلاث عشرة سنة بمكة يدعو إلى التوحيد لا غير، [ولم تخلُ] أطوار دعوته من إعلان التوحيد وشواهده ومحاربة الشرك ومظاهره.

فلا ترك النبي ﷺ التنديد بالأصنام في ابتداء دعوته ﷺ، ولا ذُهل عنه وهو محاصر بالشعب ثلاث سنوات شديدات، ولا نسيه وهو مُتَخفٍّ في هجرته والعدو مشتد في طلبه، ولا قطع الحديث عنه وهو ظاهر بمدينته بين أنصاره، ولا أغلق باب الخوض فيه بعد فتح مكة، ولا شُغل عنه وهو يجاهد وينتصر ويَكُرُّ ولا

يَفرُّ ولا اكتفى بطلب البيعة على القتال عن تكرير عرض البيعة على التوحيد ونبذ الشرك[١]. ولما حضرته الوفاة ﷺ جعل يقول: **«لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**. قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ : (يحذر ما صنعوا)[٢].

بالله عليكم، أليس هذا اهتمام بالغ بالعقيدة وقضايا التوحيد، وما ذلك إلا لكون حاجة العباد إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، لأنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم، ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها، ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، معرفة علمية عملية حقة، تدنيهم من رحمته ـ عز وجل ـ وتقربهم من عفوه ومغفرته.

وهذه العناية بالتوحيد تدل على أن جناية الشرك أفظع جناية، وأن وقاية المجتمع منه أمنع وقاية، فالتوحيد أول الأمر وآخره إذ أول واجب عليه النطق بالشهادتين للدخول في التوحيد وهي آخر كلامه، لأن من كان آخر كلامه الشهادة دخل الجنة، ومن رغب عنه فهو أسفه السفهاء، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وملة إبراهيم عليه السلام التوحيد، وأول دعوة الرسل وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله ـ عز وجل ـ هو التوحيد والسفيه من رغب عن هذا، وما أكثر سفهاء اليوم من المنكرين لهذا الأمر العظيم.

لقد اشتكى الناس اليوم كثرة الظلم وتشعبه ـ على مختلف طبقاتهم ـ وينشدون طرق النجاة من هذا الاستبداد إلى العدل فنقول لهم:

إن الله أرسل [رسله] وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، قال ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وأعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل وقوامه وهو محض حق الله ـ عز وجل ـ

(١) رسالة «الشرك ومظاهره» لمبارك الميلي (١٩).

(٢) متفق عليه البخاري (٤٤٤٣) ـ مسلم (٥٣١).

على جميع العباد، ومن أجله جردت سيوف الجهاد وسيرت جحافل الجيوش.

وأعظم الظلم الشرك قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فالتوحيد أعدل العدل والشرك أظلم الظلم.

وما أكثر الظالمين القائلين بغير علم، الضالين عن منهج الأنبياء والمرسلين بالتأويل والرأي فمن قائل: إن الكلام في التوحيد يفرق بين المسلمين، وبحاجة إلى لَمْ وجمع الكلمة وتوحيد الصف! ومن قائل: أولا نتألف الناس ونتكلم فيما يحبون حتى لا ينفروا منا ومن دعوتنا!

ومن قائل: ليس من الشرط أن ندعو إلى التوحيد ابتداء، وبالتصريح جهارا ليلاً ونهارا وإنما يمكن الدعوة بآثاره ومكملاته!.

ومن قائل: لا يوجد شرك، فالمسلمون يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون ويصومون ويحجون...!

ومن قائل: إذا سمع الكلام عن الشرك وخطورته أتكلمونا عن الشرك ونحن الأمة الموحدة؟ والتوحيد ينتشر بيننا فنحن من آباء مسلمين موحدين، وأمهات موحدات فلماذا تكلمونا عن الشرك؟!

إلى غير ذلك من الأقاويل الفاشلة التي تدل على جهل مركب بالإسلام وبنواقضه، وغفلة عن واقع المسلمين وحالهم المتردي، وانعدام الشفقة والرحمة عليهم، وهم البؤساء في عدم الاهتمام بما يصلح به مآلهم[1]. فلا اجتماع على غير التوحيد، ولا طريق إلا طريق الأنبياء والمرسلين، فهم أهدى طريقا وأقوم سبيلاً، ولا يجوز العدول عن فهمهم إلى منهج الخلف، ولا العدول عن الأصل إلى الفرع.

يتقطع قلب المسلم أسى وحسرةً على هذا الواقع المحزن لبعض المسلمين. ويذوب قلبه حزناً حينما يرى الجهلة والسذج قد عبثت فيهم البدع والشركيات تتلى الأوراد البدعية، وتنشد المدائح الشركية[2]، وتدور الرؤوس طربا وهياماً

---

(١) مجلة الأصالة العدد (٥) [١٣ ـ ١٧] مختصرا.

(٢) كقصيدة البردة للبوصيري أو البرعي أو دلائل الشر والمنكرات للجزولي.

بالدفوف في ليالي الموالد المزعومة، جماعات في إثر جماعات، وأفواج في إثر أفواج، يتقاطرون كالسيل المنهمر، يستنجدون بذلك المقبور، ويستغيثون به ويعفرون وجوههم بالتراب، ويتمرغون على أعتابه، ويتعلقون بأستاره، وتسمع الصراخ والعويل الذي لا ينقطع من الرجال والنساء: يا فلان أغثني.. يا فلان أرزقني..!

ويرحل أحدهم الليالي ذوات العدد، ويتكبد من المشاق الشيء الكثير، حاملاً نذره ليذبحه بين يدي ذلك القبر، ويلتمس القربى والبركة، ويطلب العون والمدد...! سبحان الله ـ عز وجل ـ أهكذا يكون الإسلام عند هؤلاء الضلال؟ لقد سيطرت الدروشة بصورها العبثية المختلفة، وألوانها الشركية المتعددة على عقول كثير من المنتسبين إلى الإسلام. ثم يأتي من يقول لا يوجد بين المسلمين شرك. سبحان الله كم هو محزن ومؤلم للنفس أن تطل علينا من جديد الجاهلية بصورتها الأولى، وما جاءت هذه الجاهلية بصورتها الأولى وما جاءت هذه الجاهلية الشركية القبورية إلا من المجوسية الخبيثة، والصوفية الخرافية ولا صوفية في الإسلام ولا مجوسية في الإسلام.

وإليك أخي القارىء كلمة سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن باز فيما يتعلق بالعقيدة الصحيحة.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فلما كانت العقيدة الصحيحة هي أصل دين الإسلام وأساس الملة رأيت أن تكون هي موضوع المحاضرة.

ومعلوم بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة أن الأعمال والأقوال إنما تصح وتقبل إذا صدرت عن عقيدة صحيحة، فإن كانت العقيدة صحيحة بطل ما يتفرع عنها من أعمال، وأقوال كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

وقد دلَّ كتاب الله المبين وسنة رسوله الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، علىٰ أن العقيدة الصحيحة تتلخص في: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، فهذه الأمور الستة هي أصول العقيدة الصحيحة التي نزل بها كتاب الله العزيز، وبعث الله بها رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام، ويتفرع عن هذه الأصول كل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب، وجميع ما أخبر الله به ورسوله ﷺ وأدلة هذه الأصول الستة في الكتاب والسنة كثيرة جداً، فمن ذلك:

قول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٦٠].

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

أما الأحاديث الصحيحة الدالة علىٰ هذه الأصول فكثيرة جداً:

منها الحديث الصحيح المشهور الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال له: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم**

الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» الحديث[1]، وأخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة[2].

وهذه الأصول الستة يتفرع عنها جميع ما يجب على المسلم اعتقاده في حق الله سبحانه وفي أمر المعاد وغير ذلك من أمور الغيب.

فمن الإيمان بالله سبحانه: الإيمان بأنه الإله الحق المستحق للعبادة دون كل ما سواه؛ لكونه خالق العباد والمحسن إليهم والقائم بأرزاقهم، والعالم بسرهم، وعلانيتهم، والقادر على إثابة مطيعهم وعقاب عاصيهم. ولهذه العبادة خلق الله الثقلين وأمرهم بها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لبيان هذا الحق والدعوة إليه والتحذير مما يضاده كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال عز وجل: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١-٢].

وحقيقة هذه العبادة: هي إفراد الله - عز وجل - بجميع ما تعبد العباد به من

---

(١) [أخرجه مسلم (٨) والترمذي (٢٦١٠) والنسائي (٤٩٩٠) وأبو داود (٤٦٩٥) وابن ماجه (٦٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧) ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

دعاء، وخوف ورجاء وصلاة وصوم وذبح ونذر وغير ذلك من أنواع العبادة على وجه الخضوع له والرغبة والرهبة، مع كمال الحب له سبحانه والذل لعظمته.

وغالب القرآن الكريم نزل في هذا الأصل العظيم؛ كقوله سبحانه: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

وفي الصحيحين من حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: **«حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»**.

ومن الإيمان بالله أيضاً: الإيمان بجميع ما أوجبه على عباده وفرضه عليهم من أركان الإسلام الخمسة الظاهرة وهي:

شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا، وغير ذلك من الفرائض التي جاء بها الشرع المطهر.

وأهم هذه الأركان وأعظمها: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فشهادة أن لا إله إلا الله تقتضي إخلاص العبادة لله وحده ونفيها عما سواه. وهذا هو معنى لا إله إلا الله، فإن معناها لا معبود بحقّ إلا الله، فكل ما عبد من دون الله من بشر أو ملك أو جني أو غير ذلك، فكله معبود بالباطل، والمعبود بالحق هو الله وحده كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقد سبق بيان أن الله سبحانه خلق الثقلين لهذا الأصل الأصيل، وأمرهم به، وأرسل به رسله وأنزل به الكتب.

فتأمل ذلك جيداً وتدبره كثيراً؛ ليتضح لك ما وقع فيه أكثر المسلمين من الجهل العظيم بهذا الأصل الأصيل، حتى عبدوا مع الله غيره، وصرفوا خالص حقه لسواه، فالله المستعان.

ومن الإيمان بالله سبحانه: الإيمان بأنَّه خالقُ العالم ومدبرّ شئونهم والمتصرف فيهم بعلمه وقدرته كما يشاء سبحانه. وأنَّه مالك الدنيا والآخرة وربّ العالمين جميعاً لا خالق غيره ولا ربّ سِواه. وأنَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب لإصلاح العباد ودعوتهم إلىٰ ما فيه نجاتهم وصلاحهم في العاجل والآجل.

وأنَّه سبحانه لا شريك له في جميع ذلك، قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومن الإيمان أيضاً: الإيمان بأسمائه الحسنىٰ وصِفاته العلىٰ الواردة في كتابه العزيز، والثابتة عن رسوله الأمين من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. بل يجب أن تمرّ كما جاءت بلا كيف، مع الإيمان بما دلّت عليه من المعاني العظيمة التي هي أوصاف لله ـ عز وجل ـ يجب وصفه بها علىٰ الوجه اللائق به، من غير أن يُشابه خلقه في شيء من صِفاته كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

وهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم بإحسان، وهي التي نقلها الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتابه: (المقالات عن أصحاب الحديث وأهل السنة) ونقله غيره من أهل العلم والإيمان.

قال الأوزاعي رحمه الله: سُئل الزهري ومكحول عن آيات الصِّفات. فقالا: (أمرُّوها كما جاءت)، وقال الوليد بن مُسلم رحمه الله: سُئل مالك والأوزاعي والليث بن سعد وسُفيان الثوري ـ رحمهم الله ـ عن الأخبار الواردة في الصِّفات فقالوا جميعاً: أمرّوها كما جاءت بلا كيف، وقال الأوزاعي ـ رحمه الله ـ كنا

والتابعون نقول إن الله سبحانه على عرشه، ونؤمن بما ورد في السنة من الصفات ولمّا سُئل ربيعة بن أبي عبدالرحمن شيخ مالك ـ رحمهما الله ـ عن الاستواء، قال: (الاستواء غير مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ ومِنَ اللهِ الرِّسالة وعلى الرَّسول البلاغ المُبين، وعلينا التَّصديق).

ولما سئل الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن ذلك، قال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، ثم قال للسائل: ما أراك إلا رجل سوء، وأمر به فأخرج، وروي هذا المعنى عن أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها، وقال الإمام أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك ـ رحمة الله عليه ـ: (نعرف ربنا سبحانه بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه).

وكلام الأئمة في هذا الباب كثير جداً لا يمكن نقله في هذه المحاضرة، ومن أراد الوقوف على كثير من ذلك فليراجع ما كتبه علماء السنة في هذا الباب، مثل كتاب (السنة) لعبد الله بن الإمام أحمد، و (التوحيد) للإمام الجليل محمد ابن خزيمة، وكتاب (السنة) لأبي القاسم اللالكائي الطبري، وكتاب (السنة) لأبي بكر بن أبي عاصم[١].

وجوابُ شيخ الإسلام ابن تيمية لأهل حُماة[٢]، وهو جوابٌ عظيم كثير الفائدة، قد أوضح فيه رحمه الله عقيدة أهل السنة، ونقل فيه الكثير من كلامهم والأدلة الشرعية والعقلية على صحّة ما قاله أهل السنة، وبُطلان ما قاله خصومهم.

وهكذا رسالته الموسومة بـ (التدمريّة)[٣] قد بسط المقام وبيّنَ فيها عقيدة أهل

---

(١) طبعت بتحقيق الشيخ باسم الجوابرة في مجلدين [ط: دار الصميعي].

(٢) [يَعني شَيخنا ـ رحمه الله ـ (الفتوى الحموية) وقد طُبع بحمد الله طبعة قيمة بتحقيق الشيخ حمد التويجري [ط: دار الصميعي] اهـ].

(٣) [طبعت بتحقيق الشيخ (محمد بن عودة) [ط: العبيكان]. ولها شرحٌ للشيخ فالح الدوسري المهدي بعنوان: (التحفة المهدية بشرح الرسالة التدمرية) [ط: دار الوطن]. وللعلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين تقريبٌ لها وُسِم بـ (تقريب التدمرية) [ط: ابن الجوزي] اهـ].

السنة بأدلتها النقلية والعقلية، والرد على المخالفين بما يظهر الحق ويدمغ الباطل لكل من نظر في ذلك من أهل العلم بقصدٍ صالح ورغبة في معرفة الحق.

وكل من خالف أهل السنة فيما اعتقدوه في باب الأسماء والصّفات فإنه يقع ـ ولابد ـ في مخالفة الأدلة النّقلية والعقلية، مع التّناقض الواضح في كلٍّ ما يُثبته وينفيه.

وأمّا أهل السنة والجماعة: فأثبتوا لله سبحانه ما أثبته لنفسه في كتابه الكريم، أو أثبته له رسوله محمدﷺ في سنته إثباتاً بلا تمثيل، ونزّهوه سبحانه عن مُشابهة خلقه تنزيهاً بريئاً من التّعطيل، ففازوا بالسّلامة من التناقض وعملوا بالأدلة كلها.

وهذه سُنَّة الله سبحانه فيمن تمسّك بالحقِّ الذي بعث به رسله، وبذل وسعه في ذلك، وأخلص لله في طلبه أن يوفقه للحقِّ ويظهر حجته، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره المشهور عند كلامه على قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. كلاماً حسناً في هذا الباب يحسن نقله هاهنا لعظم فائدته، قال رحمه الله ما نصه: (للناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، بل الأمر كما قال الأئمة، منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف ا لله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه

ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى) انتهى كلام ابن كثير ـ رحمه الله ـ.

أما الإيمان بالملائكة فيتضمن: الإيمان بهم جملةً وتفصيلا.

فيؤمن المسلم بأن لله ملائكة، خلقهم لطاعته، ووصفهم بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون ﴿**عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ٢٨].

وهم أصناف كثيرة: منهم الموكلون بحمل العرش، ومنهم: خزنة الجنة والنار. ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد.

ونؤمن على سبيل التفصيل: بمن سمى الله ورسوله منهم: كجبريل، وميكائيل، ومالك خازن النار، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، وقد جاء ذكرهم في أحاديث صحيحة.

وقد ثبت في الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[١] خرجه مسلم في صحيحه.

وهكذا الإيمان بالكتب يجب الإيمان إجمالاً بأن الله سبحانه أنزل كتباً على أنبيائه ورسله لبيان الحق والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ [البقرة: ٢١٣].

ونؤمن على سبيل التفصيل بما سمى الله منها: كالتوراة والإنجيل والزبور

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

والقرآن. والقرآن هو أفضلها وخاتمها، وهو المهيمن عليها والمصدق لها، وهو الذي يجب على جميع الأمة اتباعه وتحكيمه مع ما صحت به السنة عن رسول الله ﷺ؛ لأن الله سبحانه بعث رسوله محمدا ﷺ رسولا إلى جميع الثقلين، وأنزل عليه هذا القرآن ليحكم به بينهم، وجعله شفاء لما في الصدور وتبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهكذا الرسل يجب الإيمان بهم إجمالاً وتفصيلاً، فنؤمن أن الله سبحانه أرسل إلى عباده رسلا منهم مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الحق، فمن أجابهم فاز بالسعادة، ومن خالفهم باء بالخيبة والندامة.

وخاتمهم وأفضلهم: هو نبينا محمد بن عبدالله ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن سمى الله منهم أو ثبت عن رسول الله ﷺ تسميته آمنا به على سبيل التفصيل والتعيين: كنوح وهود وصالح وإبراهيم وغيرهم صلى الله وسلم عليهم وعلى آلهم وأتباعهم.

وأما الإيمان باليوم الآخر فيدخل فيه: الإيمان بكل ما أخبر الله به رسوله ﷺ مما

يكون بعد الموت كفتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، وما يكون يوم القيامة من الأهوال، والشدائد، والصراط، والميزان، والحساب، والجزاء، ونشر الصحف بين الناس؛ فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره. ويدخل في ذلك أيضاً الإيمان بالحوض المورود لنبينا محمد ﷺ. والإيمان بالجنة والنار. ورؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتكليمه إياهم. وغير ذلك مما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، فيجب الإيمان بذلك كله وتصديقه على الوجه الذي بينه الله ورسوله ﷺ.

وأما الإيمان بالقدر فيتضمن الإيمان بأمور أربعة:

* **أولها:** أن الله ـ عز وجل ـ قد علم ما كان وما يكون، وعلم أحوال عباده، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وغير ذلك من شئونهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء سبحانه؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

* **الأمر الثاني:** كتابته سبحانه لكل ما قدره وقضاه، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

* **الأمر الثالث:** الإيمان بمشيئته النافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

* **الأمر الرابع:** خلقه سبحانه لجميع الموجودات، لا خالق غيره ولا رب

سواه، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

فالإيمان بالقدر يشمل الإيمان بهذه الأمور الأربعة عند أهل السنة والجماعة؛ خلافاً لمن أنكر بعض ذلك من أهل البدع.

ويدخل في الإيمان بالله اعتقاد أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وأنه لا يجوز تكفير أحد من المسلمين بشيء من المعاصي التي هي دون الشرك والكفر، كالزنا، والسرقة، وأكل الربا، وشرب المسكرات، وعقوق الوالدين، وغير ذلك من الكبائر، ما لم يستحل ذلك؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ولما ثبت في الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ: أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان[١].

ومن الإيمان بالله: الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله.

فيحب المؤمن المؤمنين ويواليهم، ويبغض الكفار ويعاديهم.

وعلى رأس المؤمنين من هذه الأمة أصحاب رسول الله ﷺ.

فأهل السنة والجماعة يحبونهم ويوالونهم ويعتقدون أنهم خير الناس بعد الأنبياء؛ لقول النبي ﷺ: **«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**[٢] متفق على صحته، ويعتقدون أن أفضلهم أبوبكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضى رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) كما أخرجه البخاري (٢٢، ٦٥٦٠، ٧٤٤٠) ومسلم (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ. وأخرجه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٧، ٦٦٩٥) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ.

وبعدهم بقية العشرة، ثم بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويعتقدون أنهم في ذلك مجتهدون، من أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر.

ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ المؤمنين به، ويتولونهم، ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويترضون عنهم جميعاً.

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون أصحاب رسول الله ويسبونهم ويغلون في أهل البيت، ويرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله عز وجل. كما يتبرؤن من طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل.

وجميع ما ذكرناه في هذه الكلمة الموجزة داخل في العقيدة الصحيحة التي بعث الله بها رسوله محمدا ﷺ، وهي عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة التي قال فيها النبي ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله سبحانه»**(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»** فقال الصحابة: من هي يا رسول الله؟ قال: **«من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»**(٢).

وهي العقيدة التي يجب التمسك بها والاستقامة عليها والحذر مما يخالفها.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ. وأخرجه مسلم (١٩٢٠) والترمذي (٢٢٢٩) وأبو داود (٤٣٥٣) وابن ماجه (١٠) من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ. وأخرجه مسلم (١٥٦) من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) روي عن جمع من الصحابة:

١ ـ أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) وأبو داود (٤٥٩٦) والترمذي (٢٦٤٠) وابن ماجه (٣٩٩١) وأبو يعلي (٥٩١٠، ٥٩٧٨، ٦١١٧) وابن حبان (٦٢٤٧) وسنده حسن.

٢ ـ عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢) وصححه البوصيري.

٣ ـ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أخرجه أحمد (٣/ ١٤٥) وابن ماجه (٣٩٩٣).

وأما المنحرفون عن هذه العقيدة والسائرون على ضدها فهم أصناف كثيرة:

* فمنهم: عُبّادُ الأصنام والأوثان والملائكة والأولياء والجنّ والأشجارِ والأحجار، وغيرها، فهؤلاء لم يستجيبوا لدعوةِ الرسُلِ، بل خالفوهم وعاندوهم كما فعلت قُريش وأصناف العربِ من نبيِّنا محمد ﷺ، وكانوا يَسألون مَعبوداتهم قضاءَ الحاجات وشِفاءِ المرضىٰ والنّصر علىٰ الأعداء، ويذبحون لهم وينذرون لهم، فَلمَّا أنكرَ عليهم رسول الله ﷺ ذلك وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده، استغربوا ذلك وأنكروه، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

فلم يزل ﷺ يدعوهم إلىٰ الله، ويُنذرهم من الشّركِ، ويشرح لهم حقيقة ما يدعو إليه حتىٰ هدىٰ الله منهم من هدىٰ، ثم دخلوا بعد ذلك دين الله أفواجاً؛ فظهرَ دين الله علىٰ سائر الأديانِ بعد دعوةٍ متواصلة وجهاد طويل من رسول الله ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين لهم بإحسان.

ثُمَّ تغيرت الأحوال، وغلب الجهل علىٰ أكثر الخلق حتىٰ عاد الأكثرون إلىٰ دين الجاهلية، بالغلوّ في الأنبياءِ والأولياء ودعائهم والاستغاثة بهم وغير ذلك من أنواع الشركِ، ولم يعرفوا معنىٰ لا إله إلا الله كما عرف معناها كُفّارَ العرب، فالله المستعان.

ولم يزل هذا الشرك يتفشىٰ في الناس إلىٰ عصرنا هذا بسبب غلبة الجهلِ وبُعد العهد بعصر النبوة.

وشُبهةٌ هؤلاء المتأخرين: هي شبهةُ الأولين، وهي قولهم ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

وقد أبطل الله هذه الشبهة وبيَّن أن من عبد غيره كائناً من كان فقد أشركَ به وكفر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي

الأرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فبيّن الله سبحانه في هذه الآيات أن عبادة غيره من الأنبياء والأولياء أو غيرهم هي الشرك الأكبر، وإن سمّاها فاعلوها بغير ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣].

فردَّ الله سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣] فأبان بذلك سبحانه أن عبادتهم لغيره بالدعاء والخوف والرجاء ونحو ذلك كفر به سبحانه وأكذبهم في قولهم: إن آلهتهم تقربهم إليه زلفىٰ.

* ومن العقائد الكفرية المضادة للعقيدة الصحيحة، والمخالفة لما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام: ما يعتقده الملاحدة في هذا العصر من أتباع ماركس ولينين وغيرهما من دعاة الإلحاد والكفر سواء سموا ذلك اشتراكية أو شيوعية أو بعثية أو غير ذلك من الأسماء، فإن من أصول هؤلاء الملاحدة أنه لا إله والحياة مادة، ومن أصولهم إنكار المعاد وإنكار الجنة والنار والكفر بالأديان كلها، ومن نظر في كتبهم ودرس ما هم عليه علم ذلك يقيناً، ولا ريب أن هذه العقيدة مضادة لجميع الأديان السماوية، ومفضية بأهلها إلىٰ أسوأ العواقب في الدنيا والآخرة.

ومن العقائد الكفرية المضادة للحق: ما يعتقده بعض المتصوفة من أن بعض من يسمونهم بالأولياء يشاركون الله في التدبير، ويتصرفون في شئون العالم، ويسمونهم بالأقطاب والأوتاد والأغواث، وغير ذلك من الأسماء التي اخترعوها لآلهتهم.

وهذا من أقبح الشرك في الربوبية، وهو شر من شرك جاهلية العرب؛ لأن كفار العرب لم يشركوا في الربوبية وإنما أشركوا في العبادة، وكان شركهم في حال الرخاء، وأما في حال الشدة فيخلصون لله العبادة كما قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وأما الربوبية فكانوا معترفين بها لله وحده، كما قال سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[الزخرف: ٨٧] وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾[يونس: ٣١]. والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

أما المشركون المتأخرون فزادوا علىٰ الأولين من جهتين:

إحداهما: شرك بعضهم في الربوبية.

والثانية: شركهم في الرخاء والشدة، كما يعلم ذلك من خالطهم وسبر أحوالهم، ورأىٰ ما يفعلون عند قبر الحسين والبدوي وغيرهما في مصر، وعند قبر العيدروس في عدن، والهادي في اليمن، وابن عربي في الشام، والشيخ عبدالقادر الجيلاني في العراق، وغيرها من القبور المشهورة التي غلت فيها العامة، وصرفوا لها الكثير من حق الله ـ عز وجل ـ وقل من ينكر عليهم ذلك ويبين لهم حقيقة التوحيد الذي بعث الله به نبيه محمدا ﷺ، ومن قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ونسأله سبحانه أن يردهم إلىٰ رشدهم، وأن يكثر بينهم دعاة الهدىٰ وأن يوفق قادة المسلمين وعلماءهم لمحاربة هذا الشرك والقضاء عليه ووسائله، إنه سميع قريب.

* **ومن العقائد المضادة للعقيدة الصحيحة:** في باب الأسماء والصفات، عقائد أهل البدع من الجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم في نفي صفات الله ـ عز وجل ـ وتعطيله سبحانه من صفات الكمال، ووصفه ـ عز وجل ـ بصفة المعدومات والجمادات والمستحيلات، تعالىٰ الله عن قولهم علوا كبيرا.

ويدخل في ذلك من نفىٰ بعض الصفات وأثبت بعضها، كالأشاعرة فإنه يلزمهم فيما أثبتوه من الصفات نظير ما فروا منه من الصفات التي نفوها وتأولوا أدلتها، فخالفوا بذلك الأدلة السمعية والعقلية ـ وتناقضوا في ذلك تناقضا بينا.

أما أهل السنة والجماعة : فقد أثبتوا الله سبحانه ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله محمد ﷺ من الأسماء والصفات على وجه الكمال، ونزهوه عن مشابهة خلقه تنزيهاً بريئاً من شائبة التعطيل؛ فعملوا بالأدلة كلها ولم يحرفوا ولم يعطلوا، وسلموا من التناقض الذي وقع فيه غيرهم ـ كما سبق بيان ذلك ـ وهذا هو سبيل النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، وهو الصراط المستقيم الذي سلكه سلف هذه الأمة وأئمتها، ولن يصلح آخرهم إلا بما صلح به أولهم، وهو إتباع الكتاب والسنة، وترك ما خالفهما.

والله ولي التوفيق، وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا به، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

نواقض الإسلام:

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، وعلىٰ آله وأصحابه ومن اهتدىٰ بهداه.

أما بعد: فاعلم أيها المسلم أن الله سبحانه أوجب علىٰ جميع العباد الدخول في الإسلام والتمسك به، والحذر مما يخالفه وبعث نبيه ﷺ للدعوة إلىٰ ذلك، وأخبر -عز وجل- أن من اتبعه فقد اهتدىٰ، ومن أعرض عنه فقد ضلَّ وغوىٰ، وحذر في آيات كثيرات من أسباب الردة وسائر أنواع الشرك والكفر، وذكر العلماء رحمهم الله في باب حكم المرتد: أن المسلم قد يرتد عن دينه بأنواع كثيرة من النواقض التي تحل دمه وماله، ويكون بها خارجاً من الإسلام.

ومن أخطرها وأكثرها وقوعا عشرة نواقض، ذكرها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وغيره من أهل العلم -رحمهم الله جميعاً-، ونذكرها لك فيما يلي علىٰ سبيل الإيجاز لتحذرها وتحذر منها غيرك، رجاء السلامة والعافية منها مع توضيحات قليلة تذكر بعدها:

الأول: من النواقض العشرة: الشرك في عبادة الله، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومن ذلك دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والنذر والذبح لهم.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم، فقد كفر إجماعاً.

الثالث: من لم يكفِّر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر.

الرابع: من اعتقد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت علىٰ حكمه، فهو كافر.

الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به، فقد كفر؛ لقوله

تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

السابع: السحر: ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين: والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

التاسع: من اعتقد بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ فهو كافر، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطرا وأكثر ما يكون وقوعا، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه. نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم. انتهى كلامه رحمه الله.

ويدخل في القسم الرابع: من اعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنها الناس أفضل من شريعة الإسلام. أو أنها مساوية لها أو أنه يجوز التحاكم إليها ولو اعتقد أن الحكم بالشريعة أفضل أو أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في القرن العشرين. أو أنه كان سبباً في تخلف المسلمين. أو أنه يحصر علاقة المرء بربه دون أن يتدخل في شئون الحياة الأخرى[1].

---

(١) كالعلمانية التي معناها فصل الدين عن الدولة والعلمانية كفر.

ويدخل في الرابع أيضاً: من يرىٰ أن إنفاذ حكم الله في قطع يد السارق أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحاضر. ويدخل في ذلك أيضاً: كل من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير شريعة الله في المعاملات أو الحدود أو غيرها، وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة؛ لأنه بذلك يكون قد استباح ما حرّمه الله إجماعاً، وكل من استباح ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا والخمر والربا والحكم بغير شريعة الله فهو كافرٌ بإجماع المسلمين.

***

فتاوى في العقيدة

فتاوى في العَقيدة(١)

لسماحة الشيخ العلامة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ :

س١ : انتشرت في بعض المجتمعات الإسلامية مُخالفات متعددة، منها : ما يقع عند القبور، ومنها : ما يتّصل بالحَلِفِ والإيمانِ والنُّذورِ. وقد تختلف أحكام هذه المخالفات بين ما يكون منها مِن قبيل الشّركِ المخُرج من الملة، وما يكون دون ذلك، فَحبّذا لو تفضّل سَماحتكم ببَسطِ القَولِ وبيان أحكامِ تلك المسائل لهم، ونصيحة أُخرىٰ لعامّة المُسلمين ترهيباً لهم من التّساهل بأمرِ تِلك المُخالفات والتّهاون بشأنها؟

ج١ : الحمدُ لله، وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وأصحابه ومن اهتدىٰ بهداه.

أما بعد : فإنّ كثيراً من النَّاسِ تلتبس عليهم الأمور المشروعة بالأمور الشّركية والمبتدعة حول القبور، كما أنَّ كثيراً منهم قد يقع في الشركِ الأكبر بسبب الجهلِ والتقليد الأعمىٰ، فالواجب علىٰ أهل العلم في كل مكان أن يُوضّحوا للنَّاس دينهم وأن يُبيّنوا لهم حقيقة التوحيد، وحقيقة الشّرك، كما يجب علىٰ أهل العلم أن يوضحوا للناس وسائل الشرك وأنواع البدع الواقعة بينهم حتىٰ يحذروها؛ لقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ

(١) مُنْتَقاةٌ من كِتابِ (فَتاوىٰ مهمّة تَتَعلّقُ بالعَقيدَة) لِسماحة الشيخ الوالد عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ـ رحمه الله ـ.

أتوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠]. وقال النبي ﷺ: «**مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فاعله**» رواه مسلم في صحيحه(١). وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «**من دعا إلىٰ هدىٰ: كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلىٰ ضلالة: كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**» رواه مسلم أيضاً(٢). وفي الصحيحين عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»(٣). والآيات والأحاديث في الدعوة إلىٰ نشر العلم وترغيب الناس في ذلك والتحذير من الإعراض وكتمان العلم كثيرة.

وأما مايقع عند القبور من أنواع الشرك والبدع في بلدان كثيرة، فهو أمر معلوم وجدير بالعناية والبيان والتحذير منه.

فمن ذلك: دعاء أصحاب القبور والاستغاثة بهم، وطلب شفاء المرضىٰ، والنصر علىٰ الأعداء ونحو ذلك. وهذا كله من الشرك الأكبر الذي كان عليه أهل الجاهلية، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. والمعنىٰ: أمر وأوصىٰ. وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]. والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، والعبادة التي خلق الثقلان لأجلها

---

(١) [أخرجه مسلم (١٨٩٣) والترمذي (٢٦٧١) وأبو داود (٥١٢٩) وأحمد (٢٧٥٨٥، ٢١٨٣٤، ٢١٨٤٦، ٢١٨٥٥)].

(٢) [أخرجه مسلم (٢٦٧٤) والترمذي (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٦٠٩) وأحمد (٨٩١٥) والدارمي (٥١٣) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ].

(٣) [أخرجه البخاري معلقا في كتاب العلم (باب العلم قبل القول والعمل) وأسنده برقم (٧١) وأخرجه مسلم (١٠٣٧)].

وأمروا بها هي توحيده سبحانه، وتخصيصه بجميع الطاعات التي أمر بها من صلاة، وصوم، وزكاة، وحج، وذبح، ونذر، وغير ذلك من أنواع العبادة، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

والنِّسك هو العبادة: ومنها: الذبحُ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ١-٢].

وقال النبي ﷺ: **«لَعَنَ اللهُ من ذَبحَ لِغَيرِ الله»** أخرجه مُسلم في صَحيحه من حديثِ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه[(١)] -.

وقال الله سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقال - عز وجل -: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. وقال - عز وجل - في سُورةِ فاطر: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

فأوضح سبحانه في هذه الآيات:

إنَّ الصّلاة لغيره، والذبح لغيره، ودعاء الأموات والأصنام والأشجار والأحجار، كل ذلك من الشرك بالله والكفر به.

وإنَّ جميعَ المدعوّين من دونه من أنبياء، أو ملائكة، أو أولياء أو جن، أو أصنام أو غيرهم، لا يملكون لداعيهم نَفعاً ولا ضراً.

وإن دعوتهم من دونه سبحانه شرك وكفر كما أوضح سبحانه أنهم لا يسمعون دعاءَ داعيهم، ولو سمعوا لم يستجيبوا له.

فالواجب على جميع المُكلّفين من الجنِّ والإنس الحذر من ذلك، والتحذير

(١) [أخرجه مُسلم (١٩٧٨) والنَّسائي (٤٤٢٢) وأحمد (٨٥٧، ٩٥٧، ١٣٠٩)].

منه، وبيان بُطلانه، وأنّه يُخالف ما جاءت به الرُّسل عليهم الصَّلاة والسّلام من الدعوة إلىٰ توحيد الله وإخلاص العبادة له؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبياء: ٢٥].

وقد مكث ﷺ في مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة يدعو فيها إلىٰ الله سبحانه، ويُحذر النَّاس من الشّرك به، ويوضّح لهم معنىٰ لا إله إلا الله، فاستجابَ له الأقلُون، واستكبر عن طاعته واتِّباعه الأكثرون.

ثم هاجر إلىٰ المدينة فنشر الدعوة إلىٰ الله سبحانه هناك بين المهاجرين والأنصار، وجاهد في سبيل الله، وكتب إلىٰ الملوك والرؤساء وأوضح لهم دعوته، وما جاء به من الهدىٰ، وصَبَرَ وصابر في ذلك هو وأصحابه - رضي الله عنهم - حتىٰ ظهر دين الله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر التوحيد وزال الشّرك من مكة والمدينة ومن سائر الجزيرة علىٰ يده ﷺ وعلىٰ يد أصحابه من بعده.

ثُمَّ قام أصحابه بالدعوة إلىٰ الله سبحانه والجهاد في سبيله في المشارق والمغارب حتىٰ نصرهم الله علىٰ أعدائه، ومكّنَ لهم في الأرض، وظهر دين الله علىٰ سائر الأديان، كما وعد بذلك سبحانه في كتابه العظيم حيث قال - عز وجل -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

ومن البدع ووسائل الشّركِ ما يُفعل عند القبور من الصَّلاة عندها، والقراءة عندها، وبناء المساجد والقباب عليها، وهذا كلّه بدعة ومنكر، ومن وسائل الشرك الأكبر، ولهذا صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لَعَنَ الله اليهود والنَّصارىٰ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** متفق علىٰ صِحَّته من حديثِ عائشة - رَضِيَ الله عنها -[1].

وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبدالله - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: **«الا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد الا فلا**

---

(١) [أخرجه البخاري برقم (٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٤، ٤٤٤١، ٤٤٤٤، ٥٨١٦) ومسلم برقم (٥٣١)].

تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»[١].

فأوضح ﷺ في هذين الحديثين وما جاء في معناها: أن اليهود والنصارىٰ كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فحذر أمته من التشبه بهم باتخاذها مساجد والصلاة عندها والعكوف عندها والقراءة عندها، لأن هذا كله من وسائل الشرك.

ومن ذلك: البناء علىٰ القبور، واتخاذ القباب والستور عليها: فكل ذلك من وسائل الشرك والغلو في أهلها، كما قد وقع ذلك من اليهود والنصارىٰ ومن جهال هذه الأمة، حتىٰ عبدوا أصحاب القبور، وذبحوا لهم، واستغاثوا بهم، ونذروا لهم، وطلبوا منهم شفاء المرضىٰ، والنصر علىٰ الأعداء، كما يعلم ذلك من عرف ما يفعل عند قبر الحسين، والبدوي، والشيخ عبدالقادر الجيلاني، وابن عربي وغيرهم من أنواع الشرك الأكبر، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه نهىٰ عن تجصيص القبور، والقعود عليها، والبناء عليها، والكتابة عليها. وما ذاك إلا لأن تجصيصها والبناء عليها من وسائل الشرك الأكبر بأهلها.

فالواجب علىٰ جميع المسلمين حكومات وشعوبا الحذر من هذا الشرك ومن هذه البدع، وسؤال أهل العلم المعروفين بالعقيدة الصحيحة، والسير علىٰ منهج سلف الأمة عما أشكل عليهم من أمور دينهم حتىٰ يعبدوا الله علىٰ بصيرة، عملاً بقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

وقول النبي ﷺ: **«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً للجنة»**[٢]. وقوله ﷺ: **«من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين»**[٣].

ومعلومٌ أن العباد لم يُخلقوا عَبثاً، وإنما خُلقوا لحكمة عظيمة وغاية شريفة،

---

(١) [مسلم برقم (٥٣٢)].

(٢) [حديثٌ صَحيحٌ: أخرجه الدارمي برقم (٣٥٦) وابن حِبَّان (٨٨) [وموارد الظمآن (٨٠) سليم أسد] والطحاوي في المشكل (١/ ٤٢٩).

(٣) [تقدم بحمد الله ـ عز وجل ـ].

وهي عبادة الله وحده دون كل سِواه؛ كما قال ـ عز وجل ـ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولا سبيل إلىٰ معرفة هذه العبادة إلا بتدبر الكتاب العظيم والسنة المطهرة، ومعرفة ما أمر الله به ورسوله من أنواع العبادة، وسؤال أهل العلم عمّا أشكل في ذلك. وبذلك تعرف عبادة الله سبحانه وتعالىٰ التي خَلَقَ العباد من أجلها، وتؤدَّىٰ علىٰ الوجه الذي شرعه الله، وهذا هو السبيل الوحيد إلىٰ مرضاة الله سبحانه والفوز بكرامته، والنّجاةُ من غضبه وعِقابه.

وفق الله المسلمين لكل ما فيه رضاه، ومنحهم الفقه في دينه، وولىٰ عليهم خيارهم وأصلح قادتهم، ووفق علماء المسلمين لأداء ما يجب عليهم من الدعوة والتعليم والنصح والتوجيه، إنه جواد كريم.

ومن أنواع الشرك: الحَلِفُ بِغيرِ الله، كالحلف بالأنبياء وبرأس فلان، وحياة فلان، والحلف بالأمانة والشّرف، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من كان حالِفاً فَليَحلف بالله أو لِيَصمت»** مُتَفقٌ علىٰ صِحّته[١]. وقوله ﷺ: **«مَن حلف بشيء دون الله فقد أشرك»** رواه الإمام أحمد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بإسنادٍ صَحيح[٢].

وقال ﷺ: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»** أخرجه أبو داود والترمذي بإسنادٍ صَحيح من حديثِ ابن عمر رَضِي الله عنهما[٣]. وقال ﷺ: **«من حلف بالأمانة فليس منا»**[٤].

---

(١) [أخرجه البخاري (٢٦٧٩، ٣٨٣٦، ٦١٠٨) ومواضع أُخر. وأخرجه مُسلم (١٦٤٦) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ].

(٢) [أخرجه أحمد (٣٣١، ٤٨٨٦) وضياء الدين المقدسي في (المختارة) (١/ ٣١٣ ـ ٣١٤) (٢٠٥) وأبو يعلي في مُسنده [ضياء الدين المقدسي في (المختارة) (١/ ٣١٤) برقم (٢٠٦)].

(٣) [أخرجه الترمذي (١٥٣٥) وأبو داود (٣٢٥١) وأحمد (٤٨٨٦).

(٤) [أخرجه أبو داود (٣٢٥٣) وأحمد (٢٢٤٧١)].

وقال ﷺ: «**لا تَحْلِفُوا بآبَائِكُمْ، ولا بأمَّهَاتِكُمْ، ولا بالأنداد، ولا تَحْلِفُوا بالله إلا وأنْتُمْ صَادِقُونَ**»[1].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، والحلف بغير الله من الشرك الأصغر، وقد يُفضي إلى الشرك الأكبر إذا اعتقد تعظيمه مثل تعظيم الله، أو أنه ينفع ويضر دون الله، أو أنه يصلح لأن يدعى أو يُستغاث به.

ومن هذا الباب: قولُ: ما شاء الله وشاء فلان، ولولا الله وفلان، وهذا من الله وفلان، وهذا كله من الشرك الأصغر؛ لِقول النبي ﷺ: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»[2].

وبهذا تعلم أنه لا حرج بأن يقول: لولا الله ثم فلان، أو هذا من الله ثم فلان؛ إذا كان له تسبب في ذلك. وثبت عنه ﷺ أن رجلاً قال له: ما شاء الله وشئت. فقال له ﷺ: «**أجعلتني لله نداً، قلْ: ما شاء الله وحده**»[3]. فدلَّ هذا الحديث على أنه إذا قال: (ما شاء الله وحده) فهذا هو الأكمل، وإن قال: (ما شاء الله ثم شاء فلان) فلا حرج جمعاً بين الأحاديث والأدلة كلها، والله ولي التوفيق.

س٢: يخلط بعض النَّاس بين التَّوسل بالإيمان بالنبي ﷺ، ومحبته وطاعته، والتوسل بذاته وجاهه. كما يقع الخلط بين التوسل بدعائه ﷺ في حياته، وسؤاله الدعاء بعد مماته، وقد ترتب على هذا الخلط الْتِباسُ المشروع من ذلك بالممنوع منه، فهل من تفصيل يُزيل اللبس في هذا الباب، ويُرَدُّ به على أصحابِ الأهواء الذين يُلبِّسونَ على المسلمين في هذه المسائل؟

ج٢: لاشكَّ أن كثيراً من الناس لا يفرقون بين التوسل المشروع والتوسل الممنوع بسبب الجهل وقلة من يُنبههم ويُرشدهم إلى الحق، ومعلومٌ أن بينهما فرقاً

(١) [أخرجه أبو داود (٣٢٤٨) والنسائي (٣٧٦٩)].

(٢) [أخرجه أبو داود (٤٩٨٠) وأحمد (٢٢٧٥٤، ٢٢٨٢٨، ٢٢٨٧٢)].

(٣) [أخرجه ابن ماجه (٢١١٧) وأحمد (١٨٤٢، ٢٥٥٧، ٣٢٣٧، ١٩٦٥) من حديثِ عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما -].

عظيماً. فالتوسل المشروع: هو الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وخلق من أجله الثقلين، وهو عبادته سبحانه ومحبته ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة جميع الرسل والمؤمنين، والإيمان به وبكل ما أخبر الله به رسوله من البعث والنشور، والجنة والنار، وسائر ما أخبر الله به ورسوله ﷺ فهذا كله من الوسيلة الشرعية لدخول الجنة والنجاة من النار والسعادة في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك دعاؤه سبحانه والتوسل إليه بأسمائه وصفاته ومحبته، والإيمان به وبجميع الأعمال الصالحة التي شرعها لعباده وجعلها وسيلة إلىٰ مرضاته والفوز بجنته وكرامته، والفوز أيضاً بتفريج الكروب وتيسير الأمور في الدنيا والآخرة؛ كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. وقال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] هو العلم والهدىٰ والفرقان والآياتُ في هذا المعنىٰ كثيرة.

ومن التوسل المشروع التوسل إلىٰ الله سبحانه بمحبة نبيه ﷺ والإيمان به، واتباع شريعته؛ لأنَّ هذه الأمور من أعظم الأعمال الصالحات ومن أفضل القُرُبات. أما التّوسّل بجاهه ﷺ أو بذاته، أو بحقه، أو بجاه غيره من الأنبياء والصالحين أو ذواتهم أو حقهم، فمن البدع التي لا أصل لها؛ بل من وسائل الشّرك؛ لأنَّ الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم أعلم النّاس بالرسول ﷺ وبحقه لم يفعلوا ذلك، ولو كان خيراً لسبَقونا إليه، ولمّا أجدبوا في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ لم يذهبوا إلىٰ قبره ﷺ، ولم يتوسّلوا به، ولم يدعوا عنده؛ بل استسقىٰ عمر ـ رضي الله عنه ـ بعَمّه ﷺ العباس بن عبدالمطلب، أي بدعائه، فقال ـ رضي الله عنه ـ وهو علىٰ

المنبر: «اللهم إنَّا كُنَّا إذا أجدبنا نَتوسَّلُ إليكَ بِنَبِيِّنا فَتُسْقينا، وإنَّا نَتَوسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نَبِيِّنا فاسقِنا» فيُسقَون. رواه البُخاري في صَحيحه[1].

ثم أمر - رضي الله عنه - العباس أن يدعو فدعا، وأمَّن المسلمون على دعائه؛ فسقاهم الله - عز وجل -.

وقِصة أهل الغارِ مشهورة[2]، وهي ثابتة في الصحيحين، وخلاصتها: أنّ ثلاثة ممن كان قبلنا آواهم المبيت والمطر إلى غارٍ، فدخلوا فيه فانحدرت صَخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، ولم يستطيعوا دَفعَها، فقالوا فيما بينهم: لن يُنجيكم من هذه الصّخرة إلا أن تدعوا الله بصالحِ أعمالكم، فدعوه - سبحانه - واستغاثوا به. فَتوسّل أحدهم: ببر والديه. والثاني: بِعِفَّته عن الزنا بعد القدرة. والثالث: بأدائه الأمانة. فأزاح الله - عز وجل - عنهم الصخرة وخرجوا.

وهذه القصة من الدلائل العظيمة على أن الأعمال الصالحة من أعظم الأسباب في تفريج الكروب والخروج من المضائق، والعافية من شدائد الدنيا والآخرة. أما التوسل بجاه فلان أو بحق فلان أو ذاته، فهذا من البدع المنكرة، ومن وسائل الشرك، وأما دعاء الميت والاستغاثة به فذلك من الشرك الأكبر. والصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم، وأن يستغيث لهم إذا أجدبوا، ويشفع في كل ما ينفعهم حين كان حيّاً بينهم، فلما توفي ﷺ لم يسألوه شيئاً بعد وفاته، ولم يأتوا إلى قبره ﷺ يسألونه الشفاعة أو غيرها؛ لأنهم يعلمون أن ذلك لا يجوز بعد وفاته ﷺ، وإنما يجوز ذلك في حياته ﷺ قبل موته ويوم القيامة، حين يتوجه إليه المؤمنون ليشفع لهم ليقضي الله - عز وجل - بينهم ولدخولهم الجنة بعدما يأتون آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة

---

(١) [أخرجه البخاري (١٠١٠، ٣٧١٠)].

(٢) [أخرجه البُخاري (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) وأبو داود (٣٣٨٧) وأحمد (٥٩٣٧) من حديثِ ابن عمر - رضي الله عنهما -.]

والسلام، فيعتذرون عن الشّفاعة، كل واحد يقول: (نفسي نفسي اذهبوا إلىٰ غيري) فإذا أتوا عيسىٰ ـ عليه السلام ـ اعتذر إليهم وأرشدهم أن يأتوا نبيّنا محمداً ﷺ، فيأتونه فيقول: «**أنا لها، أنا لها**»؛ لأن الله سبحانه قد وعده ذلك، فيذهب ويخر ساجداً بين يدي الله ـ عز وجل ـ، ويحمده بمحامد كثيرة، ولا يزال ساجداً حتىٰ يُقال له: «**ارفع رأسك وقُل تُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفع**»(١).

وهذا الحديث ثابتٌ في الصحيحين، وهو حديث الشّفاعة المشهور، وهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله سبحانه في قوله في سورة الإسراء: ﴿**عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

صَلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه بإحسان، وجعلنا الله ـ عز وجل ـ من أهل شفاعته، إنه سميعٌ قريب.

س٣: يُلاحظ جهل كثير من المحسوبين علىٰ الأمة الإسلامية بمعنىٰ لا إله إلا الله، وقد ترتب علىٰ ذلك الوقوع فيما يُنافيها ويُضادها أو ينقضها من الأقوال والأعمال. فما معنىٰ لا إله إلا الله؟ وما مُقتضاها؟ وما شُروطها؟

ج٣: لا شك أن هذه الكلمة وهي لا إله إلا الله هي أساسُ الدين وهي الركن الأول من أركان الإسلام، مع شهادة أن محمداً رسول الله، كما في الحديث الصَّحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**بُني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصَومُ رمضان، وحج البيت**» متفق علىٰ صحته من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما(٢) ـ.

وفي الصحيحين عن ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ أن النبي ﷺ لما بعث معاذاً ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ اليمن قال له: «**إِنَّكَ تأتِي قوْماً من أهْلَ الكتَابِ، فَادْعُهُمْ إلىٰ أنْ يَشْهَدُوا أنْ لا إله إلا الله، وأنِّي رَسُولُ اللهِ، فإنْ أطاعوك لذلك فأعلمهم أنَّ اللهَ قدْ**

---

(١) [أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ومُسلم (١٩٤) والترمذي (٢٤٣٤، ٢٥٥٧)].

(٢) [أخرجه البخاري (٨) ومُسلم (١٦)].

افترضَ عليهِمْ خمْسَ صلَواتٍ فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، فإنْ أطاعُوكَ لِذلكَ فأعلمهم أنَّ اللهَ قدْ افترضَ علَيْهِم صدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أغنِيَائِهِم فتُردُّ في فقَرَائِهِمْ..»[1] الحديث متفق عليه، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

* ومعنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله: لا معبود بحقّ إلا الله، وهي تنفي الألهية بحق عن غير الله سبحانه، وتُثبتها بالحقّ لله وحده، كما قال - عز وجل - في سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال - عز وجل - في سورة البقرة: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقال في سورة البينة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

وهذه الكلمة العظيمة لا تنفع قائلها ولا تُخرجه من دائرة الشرك إلا إذا عرف معناها وعمل به وصدَّق به. وقد كان المنافقون يقولونها وهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم لم يؤمنوا ولم يعملوا بها. وهكذا اليهود تقولها وهم من أكفر الناس لعدم إيمانهم بها، وهكذا عُبَّاد القبور والأولياء من كُفار هذه الأمة يقولونها وهم يُخالفونها بأقوالهم وأفعالهم وعقيدتهم، فلا تنفعهم ولا يكونون بقولها مسلمين؛ لأنهم ناقضوها بأقوالهم، وأعمالهم، وعقائدهم، وقد ذكر بعض أهل العلم من شروطها ثمانية، جمعها في بيتن فقال:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوىٰ الإله من الأشياء قد ألها

وهذان البيتان قد استوفيا جميع شروطها:

---

(١) [أخرجه البخاري (١٤٩٦) ومسلم (١٩)].

الأول: العلم بمعناها المنافي للجهل وتقدم أن معناها: لا معبود بحق إلا الله، فجميع الآلهة التي يعبدها الناس سوىٰ الله سبحانه كلها باطلة.

الثاني: اليقين المنافي للشك فلا بد في حق قائلها أن يكون علىٰ يقين بأن الله سبحانه هو المعبود بالحق.

الثالث: الإخلاص وذلك بأن يخلص العبد لربه سبحانه (وهو الله ـ عز وجل) جميع العبادات، فإذا صرف منها شيئاً لغير الله من نبي أو ولي أو ملك أو صنم أو جني أو غيرها؛ فقد أشرك بالله، ونقض هذا الشرط، وهو شرط الإخلاص.

الرابع: الصدق ومعناه أن يقولها وهو صادق في ذلك، يطابق قلبه لسانه، ولسانه قلبه، فإن قالها باللسان فقط وقلبه لم يؤمن فإنها لا تنفعه، ويكون بذلك كافرا كسائر المنافقين.

الخامس: المحبة ومعناها أن يحب الله ـ عز وجل ـ فإن قالها وهو لا يحب الله ـ عز وجل ـ صار كافرا لم يدخل في الإسلام كالمنافقين.

ومن أدلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

السادس: الانقياد لما دلت عليه من المعنىٰ ومعناه أن يعبد الله ـ عز وجل ـ وحده وينقاد لشريعته، ويؤمن بها، ويعتقد أنها الحق. فإن قالها ولم يعبد الله وحده، ولم ينقاد لشريعته بل استكبر عن ذلك، فإنه لا يكون مسلماً كإبليس وأمثاله.

السابع: القبول لما دلت عليه ومعناه أن يقبل ما دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه، وأن يلتزم بذلك ويرضىٰ به.

الثامن: الكفر بما يعبد من دون الله ومعناه أن يتبرأ من عبادة غير الله ويعتقد أنها باطلة؛ كما قال الله سبحانه ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»**[1].

وفي رواية: **«من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه»**[2] أخرجهما مسلم في صحيحه.

فالواجب على جميع المسلمين أن يحققوا هذه الكلمة بمراعاة هذه الشروط، ومتى وجد من المسلم معناها والاستقامة عليه فهو مسلم حرام الدم والمال، وإن لم يعرف تفاصيل هذه الشروط؛ لأن المقصود هو العلم بالحق والعمل به، وإن لم يعرف المؤمن تفاصيل الشروط المطلوبة.

والطاغوت هو كل ما عبد من دون الله، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومن كان لا يرضى بذلك من المعبودين من دون الله كالأنبياء والصالحين والملائكة فإنهم ليسوا بطواغيت، وإنما الطاغوت هو الشيطان الذي دعا إلى عبادتهم وزينها للناس، نسأل الله لنا وللمسلمين العافية من كل سوء.

وأما الفرق بين الأعمال التي تنافي هذه الكلمة (وهي لا إله إلا الله) والتي تنافي كمالها الواجب، فهو:

أن كل عملٍ أو قولٍ أو اعتقادٍ يوقع صاحبه في الشرك الأكبر فهو ينافيها بالكلية ويضادها، كدعاء الأموات والملائكة والأصنام والأشجار والأحجار والنجوم ونحو ذلك، والذبح لهم والنذر والسجود لهم وغير ذلك.

---

(١) [مسلم برقم (٢٣)].

(٢) [مسلم برقمي (٢٣، ٢٦٩٧)].

فهذا كله ينافي التوحيد بالكلية ويضاد هذه الكلمة ويبطلها (وهي لا إله إلا الله).

ومن ذلك: استحلال ما حرَّم الله من المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة والإجماع، كالزنا، وشرب المسكر، وعقوق الوالدين، والربا ونحو ذلك.

ومن ذلك أيضاً: جحد ما أوجب الله من الأقوال والأعمال المعلومة من الدين بالضرورة والإجماع، كوجوب الصلوات الخمس والزكاة، وصوم رمضان، وبر الوالدين، والنطق بالشهادتين ونحو ذلك.

أما الأقوال والأعمال والاعتقادات التي تُضعف التوحيد والإيمان، وتنافي كمالها الواجب، فهي كثيرة، ومنها:

الشركُ الأصغر: كالرياء، والحلف بغير الله، وقول ما شاء الله وشاء فلان، أو هذا من الله ومن فلان، ونحو ذلك.

وهكذا جميع المعاصي كلها تضعف التوحيد والإيمان وتنافي كمالها الواجب، فالواجب الحذر من جميع ما يُنافي التوحيد والإيمان أو ينقص ثوابها.

والإيمانُ عندَ أهلِ السنَّةِ والجماعة: قَولٌ وعملٌ، يزيد بالطَّاعَةِ وينقص بالمعصية.

والأدلة على ذلك كثيرة أوضحها أهل العلم في كتب العقيدة وكتب التفسير والحديث، فمن أرادها وجدها والحمد لله.

ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

س٤ : هُناك من يرىٰ جواز التَّبرّك بالعلماء والصّالحين وآثارهم مُستدلاً بما ثبت من تبرك الصَّحابة بالنبي ﷺ، فما حكم ذلك؟ ثم أليس فيه تشبيه لغير النبي ﷺ بالنبي ﷺ؟ وهل يُمكن التبرك بالنبي ﷺ بعد وفاته؟ وما حكم التوسل إلىٰ الله تعالىٰ ببركة النبي ﷺ؟

ج٤ : لا يجوز التبرك بأحدٍ غير النبي ﷺ، لا بوضوئه، ولا بشعره، ولا بعرقه، ولا بشيء من جسده؛ بل كله خاصٌّ بالنبي ﷺ لما جعل الله في جسده وما مسه من الخير والبركة. ولهذا لم يتبرك الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بأحد منهم، لا في حياته ولا بعد وفاته ﷺ لا مع الخلفاء الراشدين ولا مع غيرهم، فدلَّ ذلك علىٰ أنهم قد عرفوا أن ذلك خاص بالنبي ﷺ دون غيره، ولأنَّ ذلك وسيلة إلىٰ الشرك وعبادة غير الله ـ عز وجل ـ. وهكذا لا يجوز التوسل إلىٰ الله ـ عز وجل ـ بجاه النبي ﷺ أو ذاته أو صفته أو بركته؛ لعدم الدليل علىٰ ذلك ولأنَّ ذلك من وسائل الشرك به، والغلو فيه ﷺ؛ ولأنَّ ذلك أيضاً لم يفعله الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنَّ ذلك خلاف الأدلة الشرعية، فقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ولم يأمر بدعائه سبحانه بجاه أحد أو حق أحد أو بركة أحد.

ويُلحق بأسمائه سبحانه: التوسل بصفاته، كعزَّته، ورحمته، وكلامه وغير ذلك.

ومن ذلك ما جاء في الأحاديث الصّحيحة من التعوذ بكلمات الله التامات[1]، والتعوذ بعزة الله وقدرته.

ويلحق بذلك أيضاً التوسل بمحبة الله سبحانه، ومحبة رسوله ﷺ، وبالإيمان

---

(١) [حَديثُ خَوْلَةَ بنْتَ حَكيم السُّلَميَّةَ ـ رَضيَ الله عنها ـ قَالَت: سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»** أخرجه مُسلم (٢٧٠٨) واللفظ له، والترمذي (٣٤٣٧) وابن ماجه (٣٥٤٧).

بالله وبرسوله، والتوسل بالأعمال الصالحات، كما في قصة أصحاب الغار[١]، وهو في الصحيحين من أخبارِ من قبلنا أخبرنا به ﷺ لما فيه من العظة لنا والتذكير.

وقد صرّح العلماء رحمهم الله بما ذكرته في هذا الجواب. . . كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، والشيخ العلامة عبدالرحمن بن حسن في فتح المجيد شرحِ كتاب التوحيد وغيرهم.

وأما حديثُ توسل الأعمى بالنبي ﷺ في حياته ﷺ، فشفع فيه النبي ﷺ ودعا له فرد الله عليه بصره، فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ بشفاعته، وليس ذلك بجاهه وحقه - كما هو واضحٌ في الحديث - وكما يتشفع الناس به يوم القيامة في القضاء بينهم، وكما يتشفع به يوم القيامة أهل الجنة في دخولهم الجنة، وكل هذا توسل به في حياته الدنيوية والأخروية، وهو توسلٌ بدعائه وشفاعته، لا بذاته وحقه كما صرح بذلك أهل العلم، ومنهم من ذكرت آنفاً.

س٥: يقع كثير من العامة في جملة من المخالفات القادحة في التوحيد، فما حكمهم؟ وهل يُعذرون بالجهلِ؟ وما حكم مناكحتهم وأكل ذبائحهم؟ وهل يجوز دخولهم مكة المكرمة؟

ج٥: من عُرِفَ بدعاء الأموات والاستغاثة بهم والنّذر لهم، ونحو ذلك من أنواع العبادة فهو مشرك كافر لا تجوز مناكحته، ولا دخوله المسجد الحرام، ولا معاملته معاملة المسلمين، ولو ادّعى الجهل، حتى يتوب إلى الله من ذلك؛ لقول الله - عز وجل - في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله - عز وجل - في سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ

---

(١) تقدم ذِكرها قريباً.

مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾ [الممتحنة: ١٠].

ولقوله ـ عز وجل ـ في سورة التوبة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة: ٢٨].

ولا يُلتفت إلى كونهم جُهالاً، بل يجبُ أن يُعاملوا مُعاملة الكُفَّار حتى يتوبوا إلى الله من ذلك؛ لقول الله سبحانه في أمثالهم: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون (٢٨) قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون (٢٩) فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ [الأعراف: ٢٨ ـ ٣٠].

لقول الله ـ عز وجل ـ في النَّصارى وأمثالهم: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا (١٠٣) الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤] والآياتُ في ذلك كثيرة.

س٦: ظهر في كثير من المجتمعات الإسلامية الاستهزاءُ بشعائر الدين الظاهرة: كإعفاء اللحى، وتقصير الثياب ونحوهما، فهل مثل هذا الاستهزاء بالدين يُخرجُ من الملة؟ وبماذا تَنصحون من وقع في مثل ذلك الأمر؟ وفقكم الله.

ج٦: لا ريب أن الاستهزاء بالله ورسوله وآياته وبشرعه وأحكامه من جملة أنواع الكفر؛ لقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون (٦٥) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦] ويدخل في ذلك الاستهزاء بالتوحيد، أو بالصلاة، أو بالزكاة، أو الصيام، أو الحج، أو غير ذلك من أحكام الدين المتفق عليها.

أما الاستهزاء بمن يُعفي لحيته أو يقصر ثيابه ويَحذر من الإسبال أو نحو ذلك من الأمور التي قد تخفى أحكامها، فهذا فيه تفصيل:

والواجب الحذر من ذلك، ونصيحة من يعرف منه شيء من ذلك حتى يتوب إلى الله سبحانه ويلتزم بشرعه، ويحذر الاستهزاء بمن تمسك بالشرع في ذلك، طاعة الله ـ عز وجل ـ ورسوله ﷺ وحذراً من غضب الله وعقابه والردة عن دينه وهو لا يشعر، نسأل الله لنا وللمسلمين جميعاً العافية من كل سوء إنه خير مسئول، والله وليّ التوفيق.

س٧: المزاحُ بألفاظ فيها كفر أو فسق أمر موجود في بعض المجتمعات المُسلمة، فحبّذا لو ألقى سماحتكم الضوءَ على هذا الأمر وموقف طلبة العلم والدعاة منه؟

ج٧: لا شك أن المزاح بالكذبِ وأنواعِ الكفر من أعظم المنكرات، ومن أخطرها ما يكون بين الناسِ في مجالسهم، فالواجب الحذر من ذلك، وقد حذَّر الله من ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ـ٦٦].

وقد قال كثير من السَّلف ـ رحمهم الله ـ: إنها نزلت في قوم قالوا فيما بينهم في بعض أسفارهم مع النبي ﷺ: **«ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء»** فأنزل الله فيهم هذه الآية[١].

وصَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: **«وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فيكذب لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ ثم وَيْلٌ لَهُ»** أخرجه أبو داود والترمذي والنَّسائي بإسنادٍ صحيح[٢].

فالواجب على أهل العلم وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات الحذر من ذلك والتحذير منه لما في ذلك من الخطر العظيم والفساد الكبير والعواقب الوخيمة،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير (٤/ ١٧١ـ ١٧٢) ط: دار طيبة.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٥) واللفظ له، وأبو داود (٤٩٩٠) والدارمي (٢٧٠٢).

عافانا الله والمسلمين من ذلك، وسلك بنا وبهم صراطه المستقيم، إنه سميع مجيب.

س٨: ما حكم من سَبَّ الله أو سَبَّ رسوله ﷺ أو انتقصهما؟

وما حكم من جحد شيئاً مما أوجب الله ـ عز وجل ـ أو استحلَّ شيئاً مما حرَّم الله؟ ابسطوا لنا الواجب في ذلك لكثرة وقوع هذه الشرور من كثير من الناس؟.

ج٨: كُلّ من سَبَّ الله سبحانه بأي نوع من أنواع السَّبِ، أو سَبَّ الرسول محمدا ﷺ أو غيره من الرسل بأي نوع من أنواع السَّب، أو سَبَّ الإسلامَ، أو تنقَّصَ، أو استهزأ بالله أو برسوله ﷺ فهوَ كافرٌ مرتدٌ عن الإسلام إن كان يدعي الإسلامَ، بإجماع المُسلمين؛ لقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ـ٦٦].

وقد بَسَط العلامة أبوالعبَّاس ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الأدلة في هذه المسألة في كتابه: (الصَّارم المسلول على شاتم الرَّسول)[1] فمن أراد الوقوف على الكثير من الأدلة في ذلك فليراجع هذا الكتاب لِعظم فائدته، ولجلالة مؤلفه واتِّساعِ علمه بالأدلة الشرعية رحمه الله.

وهذا الحكم في حقِّ مَنْ جحد شيئاً مما أوجبه الله، أو استحلَّ شيئاً مما حرمه الله من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، كمن جَحَدَ وجوب الصلاة، أو وجوب الزكاة، أو وجوب صوم رمضان، أو وجوب الحج في حقٍّ من استطاع السبيل إليه، أو جَحدَ وجوب برِّ الوالدين أو نحو ذلك.

ومثل ذلك: من استحلَّ الخمر، أو عقوق الوالدين، أو استحلَّ أموال الناس ودماءهم بغير حق، أو استحلَّ الربا، أو نحو ذلك من المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة وبإجماع سلف الأمة، فإنَّه كافرٌ مرتدٌ عن الإسلام إن كان يدعي

---

(١) وقد حُقِّق بحمد الله في رسالتين علميتين بتحقيق الشيخين: محمد بن عبدالله الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري. وقدَّم لهم العالمان الفاضلان: الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد، والدكتور محمد بن سعيد القحطاني. وطبع في مجلدات ثلاثة، الأول هو قِسم الدراسة، طبعته دار رمادي للنشر.

الإسلام بإجماع أهل العلم .

وقد بسط العلماء رحمهم الله هذه المسائل وغيرها من نواقض الإسلام في باب حكم المرتد ووضحوا أدلتها ، فمن أراد الوقوف على ذلك فليراجع هذا الباب في كتب أهل العلم من الحنابلة والشافعية والمالكية والحنفية وغيرهم ، ليجد ما يشفيه ويكفيه إن شاء الله ـ عز وجل ـ ولا يجوز أن يُعذر أحدٌ بدعوى الجهل في ذلك ؛ لأنَّ هذه الأمور من المسائل المعلومة بين المسلمين ، وحكمها ظاهر في كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسوله ﷺ ، والله ولي التوفيق .

س٩ : في هذا الزمان عَظُمَ النِّفاق وكَثُر أهلهُ ، وتعدَّدت وسائلهم في محاربة الإسلام والمسلمين ، فحبذا لو ألقيتم الضوء على خطر النفاق مع بيان أنواعه وذكر صِفة أهله ، وتحذير المسلمين منهم؟

ج٩ : النِّفاقُ خطره عظيم ، وشرور أهله كثيرةٌ ، وقد أوضح الله ـ عز وجل ـ صفاتهم في كتابه الكريم في سورة البقرة وغيرها ، كما أوضح صِفاتهم أيضاً نبيه ﷺ .

قال الله سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ٨ـ١٠] والآياتُ بعدها .

وقال في سورة النِّساء : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ ﴾ [النساء : ١٤٢ ـ ١٤٣] .

وذكر الله عنهم صِفات أُخرىٰ في سورة التوبة وغيرها .

الخلاصة : أنَّهم يدعون الإسلام ويتخلقون بأخلاقٍ تُخالفه وتضر أهله ، كما بيَّن الله سبحانه في هذه الآيات وغيرها .

والنِّفاقُ نوعان : اعتقادي وعملي .

وما ذكره الله عن المنافقين في سورة البقرة والنساء من صِفات المنافقين. النفاق الاعتقادي الأكبر. وهم بذلك أكفر من اليهود والنصارىٰ وعُبّاد الأوثان؛ لعظم خطرهم وخفاء أمرهم علىٰ كثير من الناس، وقد أخبر الله عنهم سبحانه أنهم يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار.

أما النفاق العملي: فهو التخلق ببعض أخلاقهم الظاهرة مع الإيمان بالله ـ عز وجل ـ وبرسوله وباليوم الآخر، كالكذب والخيانة والتكاسل عن الصلاة في الجماعة. ومن صِفاتهم: ما ثبت في الحديث الصَّحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**آية المُنَّافق ثلاثٌ: إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا اؤتمِنَ خَانَ**»[1].

وقوله ﷺ: «**أثقلُ الصلاة علىٰ المنافقين: صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً**»[2] والآيات والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة.

فالواجبُ علىٰ كل مؤمن ومؤمنة أن يحذر صِفاتهم غاية الحذر ومما يُعين علىٰ ذلك تدبر ما ذكره الله ـ عز وجل ـ في كتابه من صِفاتهم، وما صَحَّت به السنة عن الرسول ﷺ في ذلك.

***

(١) أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أخرجه النَّسائي (٨٤٣) وأبو داود (٥٥٤) وأحمد (٢٠٧٥٨، ٢٠٧٦٥) والدارمي (١٢٩٦) من حديث أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ.

خلل في الالتزام

خللٌ في الالتزام (*)

هذه رسالة أوجهها إلى القلوب التي أشرقت عليها شمس الإيمان، إلى النفوس التي سعدت بطاعة الرحمن، إلى أولئك الصالحين أهل التمسك بالدين.

أيها الحبيب أتدري من أنت؟ أنت من سلكت طريق الهداية، أنت من سار في ركب الصالحين وتجافى عن دروب الضالين. كتبتها انطلاقاً من قول النبي ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**(١). ما هذه الكلمات والله إلا محبة ناصح ونصح محب وإن المحب ليقسو أحياناً على من يحب:-

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعة

وأكره من تجارته المعاصي ... ولو كنا سويا في البضاعة

دفعني إلى كتابتها مارأيت عليه بعض إخواننا الملتزمين من أخطاء وزلات ولا عجب في ذلك فكلنا ذو خطأ «وخير الخطائين التوابين».

(*) جمع هذا الموضوع من رسائل شتى من أهمها: [١] رسالة بعنوان (خلل في الالتزام). [٢] جلسة مع ملتزم لعبد المجيد العتيبي. [٣] الالمام في أسباب ضعف الالتزام لأبي مصعب حسين محمد شامر. [٤] من أخبار المنتكسين مع الأسباب والعلاج لصالح مقبل العصيمي [٥] ظاهرة ضعف الإيمان لمحمد صالح المنجد. [٦] رسالة الحور بعد الكور لمحمد عبدالله الدويش ذكر في كتابه ص ١٢ و ١٣ [ومما كتب حول الموضوع (المتساقطون على طريق الدعوة) لفتحي يكن، وهو ينحى منحى آخر غير الذي نحن بصدده فهو حديث عن التساقط التنظيمي والحزبي.

ومن ذلك: (أسباب الضلالة بعد الهدى للشيخ عبدالله الجار الله - رحمه الله - وقد اعتنى بنشرها الشيخ عبدالعزيز السدحان.

أما على نطاق المحاضرات المسجلة فهي اوسع، فمن ذلك (الضلالة بعد الهدى) و (لا ترتدوا على أدباركم) محاضرتان لمحمد المنجد. (أسباب التساقط على طريق الهداية) لعايض القرني. (أسباب الإنحراف) لعايض القرني. (انقلاب القلوب) لأحمد القطان. والمكتبة الصوتية الإسلامية تزخر بالعديد مما يعالج هذه الظاهرة استقلالاً أو استطراداً) ا. هـ كلامه.

(١) البخاري ومسلم.

وإني لأعلم أنهم مستقيمون على دين الله ويعرفون أمور دينهم وفيهم الخير الكثير ـ إن شاء الله ـ ولكن لا يعني ذلك أنهم معصومون من الوقوع في الخطأ أو الزلل. وعلى العبد دوماً السعي إلى إكمال جوانب النقص وتدارك ما يفوته من ذلك ولنتذكر قول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي» وأخطاء الملتزمين حلها سهل ـ إن شاء الله ـ لأن القاعدة متينة وصلبة عكس غيرهم.

أخي: إن النعمة الغالية هي الالتزام بدين الله والاستقامة على منهجه وهي نعمة عظيمة يهبها الله لمن يشاء من عباده تفضلاً وتكرماً ورحمة منه تعالى، والالتزام هو لزوم طاعة الله تعالى والله يقول: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] وفي الحديث **«قل آمنت بالله ثم استقم»** فالالتزام قوة وتحمل لتكاليف الشرع مع اللذة والسعادة التي يمنحها الله للعبد الصادق.

هل حقيقة الالتزام هو مجرد ذلك المقصر ثوبه والمعفي لحيته فقط وليس له من الالتزام إلا اسمه فحسب؟ ولا يفهم الكلام على غير معناه، فإن تقصير الثوب وترك اللحية من الأمور الواجب وجودها في الرجل المسلم وإنما المقصود موافقة العمل والقول للظاهر وفهم معنى الالتزام فهماً صحيحاً. فالملتزم حقيقة هو من سلك طريق الاستقامة إخلاصاً لله وحده، فهو مجتهد في طاعة الله كلها متبعاً للسنة والحق مخالفاً للبدعة والباطل.

وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقة العمل. الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان[١].

أقول: إن مما يدعو للحزن والأسى ما يلاحظ على بعض أولئك الشباب الملتزمين من بعض المظاهر السلبية التي تُخل بالتزامهم وتؤثر في إيمانهم[٢] والتي

(١) بتصرف واختصار من جلسة مع ملتزم (٤ ـ ٥).

(٢) بل ربما كانت سبباً في انتكاسهم.

سنحاول ذكر بعض منها ولعل من أهمها :-

* إهمال عمل القلوب(*) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (أعمال القلوب أصل من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والمشاركة والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع ذلك ثم يقول : وهذه الأعمال واجبة على جميع الخلق)(**) . فالقلب هو موضع نظر الرب جل وعلا فجدير بكل مسلم أن يهمّ بهذه المضغة يقول ﷺ : **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[١] وكثير من المسلمين اليوم اهتموا بأعمال الجوارح وأهملوا أعمال القلوب وما علموا أن صلاح القلب هو صلاح الجوارح ، والقلب بمثابة الملك الذي يصدر أوامره للرعية وهي الجوارح ، وأعمال القلوب كثيرة منها محبة الله وهي من أعظم المطالب وأسمى الغايات يقول ابن القيم - رحمه الله - في المحبة وهي قوت القلوب . وغذاء الأرواح وقرة العيون[٢] . فكيف قلوبنا مع محبة الله هل هي مقدمة على المال والزوجة والولد أم عكس ذلك . ما حظ القلب من محبة الله ومحبة رسوله ﷺ الذي يقول : **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**[٣] . ما أحوال قلوبنا مع التوكل والاستعانة والرغبة والرهبة والخشوع والخضوع والتعظيم والاجلال والخشية؟ يقول ابن القيم وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى فتفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها[٤] وهل العبادة إلا غاية الحب مع غاية الذل مع غاية التعظيم فمتى أهمل المسلم عمل القلب عاد عليه بالضعف

(*) وهناك رسالة بعنوان (عبادة القلب) لعبدالرحمن صالح المحمود .

(**) فتاوى ابن تيمية المجلد العاشر .

(١) رواه مسلم .

(٢) مدارج السالكين

(٣) رواه أحمد

(٤) الوابل الصيب .

ولم يصل إلى الهدف الحقيقي من عبادته .

فالعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها :

أولاً: الحب الكامل . **ثانياً:** الذل التام[١] .

*الانشغال بعيوب الآخرين : من الناس من همه تصيد الأخطاء وانتقاص الآخرين والاشتغال بعيوبهم وترك عيب نفسه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : كالذباب لا يقع إلا على الأذى ومن اشتغل بعيوب الآخرين وترك عيبه فهو أعظم الناس جهلاً . يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ : «المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه وهذه محنة عمت أكثر الخلق»[٢] والشخص الموفق هو الذي رجع إلى نفسه فحاسبها وانتقصها وألزمها التقوى وعرف أنها العدو الذي لابد أن يحارب وإن في اهانتها النجاة والفلاح في الآخرة[٣] .

فعلى المرء محاسبة نفسه ومراقبتها وتفقدها قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : «رحم الله عبد وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر» والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

* ضعف الإخلاص والإخلاص كما قال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : الإخلاص افراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمده عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو من المعاني سوى التقرب إلى الله[٤] وقال سهل التستري : «نظر الاكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا : أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى لايمازجه نفس ولا هوى ولا دنيا[٥] فأين نحن

---

(١) من الإلمام في أسباب ضعف الالتزام (٣٥ ـ ٣٨) باختصار .

(٢) صيد الخاطر .

(٣) الالمام في أسباب ضعف الالتزام (٤٧ ـ ٤٨) .

(٤) الأذكار للنووي .

(٥) المصدر السابق (٢٢) .

من الإخلاص؟ رحم الله حالنا.

* التعلق بالأشخاص وهي ظاهرة دخيلة على الصالحين - وليس كلهم - لا يستقيم معها حال ولا يرجى لها مآل، وقد يقع التعلق بعالم أو حافظ لكتاب الله ونحوهما وهي ظاهرة خطيرة لأنها تتعلق بالجانب العقدي[1] والواجب أن يتعلق الشاب الملتزم بالشرع لا بالأشخاص الذين دعوه. أخي أحذرك من أن يحب أحدنا الآخر لذاته ولأنه يميل إليه ويجد متعة نفسية في وجوده معه، فلا يشاهد إلا معه في حله وترحاله وجِده وهزله فيؤدي إلى الارتباط الشخصي وهذا من أخطر صفات الأخوة في الله، حيث يتحول الحب من حب في الله إلى حب لذات الأشخاص فإذا انحرف أحدنا يتبعه الآخر لأنه مرتبط به سائر في ركابه. فلنتآخى جميعاً في الله ولنرتبط برباط الله لا برباط ذواتنا.

* الغرور والاعجاب بالنفس وهما مرضان خطيران وشرهما مستطير كفيلان بانتقاص وانتكاس صاحبهما، وبذلك يكون قد حطم ما بناه خلال فترة التزامه من استقامة وصلاح وخير. وقد يكون مدح الناس سبب في ذلك فعندما تمتدح لا تغتر بذلك فأنت أدرى بنفسك من غيرك والناس على كل حال ليس لهم إلا الظاهر فقط. وتمعن في قول خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -: «اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم فاجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون» الله أكبر إنها قمة الإخلاص والتواضع الذي عز وجوده عند البعض إلا من رحم ربي.

تواضع لرب العرش علك ترفع ... فما خاب عبد للمهيمن يخضع

أخي: لِمَ الترفع والاستطالة والتبختر على الآخرين وإن كانوا عصاة أنسيت أنك كنت مثلهم بل ربما أعظم فمنَّ الله عليك فهداك ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فأحمد الله واشكره وتواضع ولا تزهو بنفسك ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ

---

(١) جلسة مع ملتزم (٢١).

عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] ﴿بل اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧] والعجب والغرور هو الذي هوىٰ بإبليس وقد كان مع ملائكة الله فالحذر الحذر.

* احذر من التشدد في الدين والغلو في العبادة فإن دين الله سهل وليس معنىٰ السهولة استحلال المحرمات والتهاون في الطاعات كما يحلو للبعض ناقصي العقل ومتبعي الهوىٰ فهم السهولة هكذا.

وإنما اليسر وعدم المشقة أو تكليف مالا يستطاع وأيضاً كن وسطاً في جميع الأمور فلا إفراط ولا تفريط ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه والله يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ويقول ﷺ: **«هلك المتنطعون»** ولا أقصد من ذلك عدم الاجتهاد في العبادة ولكن أدائها بالحد المشروع الذي ليس فيه تنطع ولا تلتفت إلىٰ الذين إن رأوا من يواظب علىٰ سنة أو يتقيد بواجب أو يفعل الطاعات ويجتنب المنكرات أو يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر قالوا: متشدد متزمت، الدين ليس هكذا سبحان الله.. وماهو الدين إذاً؟ أتعلمون الله بدينكم!!

* إذا خلوت بمحارم الله فإياك وانتهاكها وراقب الله في ذلك كله واخش عذابه وتذكر ذلك العبد الذي يأتي في يوم القيامة بأعمال كالجبال يجعلها هباءً منثوراً لأنه حينما خلا بمحارم الله انتهكها[١] كما ورد بذلك في الحديث يا له من حديث عظيم، عبادة سنوات طويلة تكونت حتىٰ أصبحت كجبال تهامة ثم ماذا؟ ثم يجعلها الله هباءً منثوراً؟ لماذا؟ بسبب ذنوب الخلوات. **«اتق الله حيثما كنت»**.

* من أعظم ما يهدد الالتزام ويقضي عليه الحزبيات والفرق والجماعات والشعارات وأقول: أخي في الله عليك بلزوم منهج رسول الله ﷺ والحذر مما يخالفه من بينات الطريق من حزبيات وجماعات وانتماءات وفرق وشعارات يوالي ويتعصب من أجل حزبه ويعادي من أجله وليس في الإسلام وليس الدنيا إلا حزبان اثنان: حزب الله وحزب الشيطان، مفلحون وخاسرون.

---

(١) المرجع السابق (٣٢-٣٥).

فالحذر الحذر من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون: فهذا قائد لحزب يبايع على إحدى الطرق الصوفية، وهذا يدعو على جهل وضلال ويتخبط في دين الله لا يفرق بين السنة والبدعة، وهذا لا يرى إلا الجهاد فقط وينتقص العلماء ويحتقرهم وينبذهم بالألقاب ويقول بأنهم مداهنون، وهذا همه جمع الناس بغض النظر عن عقائدهم مهما تباينت واختلفت، وهذا همه نشر الخرافة والتبجح بمدح أهل البدع والتصوف والثناء عليهم، وهذا همه العلم فقط فلا يدعو ولا يجاهد بل قعيد بيته.

أمور يضحك السفهاء منها ... ويبكي من عواقبها اللبيب

ومن عنده مسكة من عقل وإيمان ينفر من هذه المناهج ويحذر ويدعو إلى نهج رسول الله ﷺ، سبحان الله من الذي حصر الإسلام في مسألة معينة دون سواها سبحان الله! الدين كامل وكلٌّ لا يتجزأ، ديننا عقيدة صافية، وعبادة وشريعة وجهاد وأخلاق ومعاملة، ودين ودولة وعلم ودعوة وهذا منهج رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ فلا حزب كذا ولا صوفية كذا ولا طريقة كذا ولا جماعة كذا تقتصر على بعض الدين دون البعض ومن فعل هذا فقد قال الله فيه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ خذها جميعاً تفز وإلا فاطرحها وخذ رجز الشياطين.

ولله در القائل:

فدع قصر فضل الله جهلاً عليهم ... ولا تغل فيهم واتركن التحزبا

ولا عار إن لم تخترع لك مذهبا ... ودر حيثما دار الدليل لتجتبى

بلا فئة تأوي إليها ومركز ... سوى الحق من أدلى به قلت مرحباً

والآخر يقول:

إني ساعمم تعميماً ... الحزب يحرم تحريماً

يا ويح مصائب أمتنا ... إسلام يخدم تنظيماً

المسلم لا يدعو إلىٰ جماعة ولا إلىٰ حزب وإنما المسلم:

إذا سُئل عن جماعته قال: المسلمون، وإذا سُئل عن قدوته قال: نبي الله محمد، وإذا سُئل عن زاده قال: العمل الصالح، وإذا سُئل عن دليله قال: الكتاب والسنة، وإذا سُئل عن ماذا يريد قال: وجه الله، وإذا سُئل عن نسبه قال:

أبي الإسلام لا أبا لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

وما شرف ولو كرمت جدود ... ولكن التقي هو الكريم

***

ولست أرضىٰ سوىٰ الإسلام لي وطنًا ... الشام فيه ووادي النيل سيان

وأينما ذكر اسم الله في بلد ... عددت أرجاءه من لب أوطان

بالشام أهلي وبغداد الهوىٰ ... وأنا بالرقمتين وبالفسطاط جيراني

ولي بطيبة أوطار مجداحة ... تسمو بروحي فوق العالم الفاني

دنيا بناها لنا الهادي فأحكمها ... أكرم بأحمد من هادي ومن باني

***

إذا اشتكىٰ مسلم في الصين أرقني ... وإن بكىٰ مسلم في الهند أبكاني

ومصر ريحانتي والشام نرجستي ... وفي الجزيزة تاريخي وعنواني

* الاستبدادا بالرأي وعدم مشورة من هم أعلم وأخبر من المشايخ وطلاب العلم أهل التقىٰ والورع وعدم الأخذ من خبرتهم ودرايتهم، والاستفادة من تجاربهم فاجتماع قوة ونشاط الشباب وخبرة الشيوخ لها دور كبير في نجاح العمل يقول تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ويقول ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

شاور أخاك إذا نابتك نائبة ... يوماً وإن كنت من أهل المشورات

ويقول الآخر:

إن الأمور إذا الأحداث دبرها ... دون الشيوخ ترىٰ في بعضها خللا

أخي لا خاب من استخار ولا ندم من استشار .

أقول ولابد من الالتفاف حول المشايخ من أهل العلم والورع والمنهج السليم والعقيدة الصحيحة .

* استحكام الشهوة(*) ويعتبر هذا المرض من أخطر ما يواجه الإنسان في حياته الدنيا وهو من أكثر الأسباب التي تؤدي إلى النار وقد ضمن الرسول ﷺ الجنة لمن ضمن ما بين فكيه وفخذيه ، فكم من عابد حولته إلى فاسق وكم من عالم حولته إلى جاهل وكم أخرجت أناساً من الدين كانوا عند من يعرفهم من أبعد الناس عن الانتكاسة . نعم إنها الشهوة خطر محدق بالإنسان وغالباً ما تحول بينه وبين ربه والنظر سهم مسموم من سهام إبليس فالنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان .

والشهوة تؤثر على قلب صاحبها وتجعله أسير الهوى شقيا بالمحبة

وما في الأرض أشقى من محب — وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكياً في كل حين — مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكي إن نأوا خوفاً عليهم — ويبكي إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند التنائي — وتسخن عينه عند التلاقي

هذه النهاية لمن أطلق النظر بكاءهم حسرة ندم «ومن أحب شيئاً غير الله عذب به» .

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم — العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه — وإنما يصرع المجنون في الحين

وصدق من قال «الحب لغير الله عذاب والعشق سم قاتل» .

إنني عندما أتكلم في هذا الموضوع فإنني أتكلم عنه من حيث خطره الظاهر ، ومع ذلك فالشباب غير عابئين به ، وهذا يعود إلى استهتار الشباب في قضايا الشهوة والنظر ، ولعل من أكثر الأسباب التي أدت إلى حدوث الانتكاس بالشهوة ما ابتلي به أهل هذا العصر من الأجهزة المحرمة وما يبث فيها من مجون وسأتكلم عن جهاز واحد منها وهو :

(*) وانظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم .

الدش: يعد هذا الدش من أكبر المصائب التي بليت بها الأمة الإسلامية حيث ساهم هذا الجهاز في انتكاسات كثيرة عايشت بعضها.

إن للشيطان وسائل متعددة في إدخال هذا الدش للبيوت حيث يبدأ بذريعة الاستفادة من الجانب الاخباري والذي أجزم أن كثيراً ممن أدخلوا هذا الجهاز لا يولون هذا الجانب أي اهتمام - أعني الجانب الأخباري - .

وخطورة هذا الجهاز تنبع من حرص أصحاب القنوات الفضائية على تقديم البرامج التي تحمل في طياتها الاغراءات الجنسية والأفلام الهابطة التي تحرك مكامن الشهوة عند الإنسان حتى أصبح مشاهدوه أسرى لهواهم، فلم يعودوا يراعون الأوامر الصريحة من الرب بغض البصر وكأن الأمر لا يعنيهم والخطاب موجه لغيرهم، وكم من شاب كان معتكفاً في المساجد أصبح معتكفاً عند هذه الأجهزة الخبيثة، ولو تفكر هؤلاء بعواقب النظر ما فعلوه قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وقد ورد في الحديث «**لا تتبع النظرة بعد النظرة فإن لك الأولى وليست لك الثانية**» وورد في صحيح مسلم عن جرير - رضي الله عنه - قال: سألت رسول الله ﷺ عن النظرة الفجأة فأمرني أن أحرف بصري» إنني أقول لإخواني: إن المؤمن الحقيقي إذا جاءه الدليل والنهي الصريح ارتدع.

لقد حوَّل هذا الجهاز الكبار إلى مراهقين وبعض الملتزمين إلى منتكسين. أعرف شاباً كان معنا وكان على بر وتقوى داعية مصلحاً، كان منظماً لوقته بذل كل الجهود لحفظ كتاب ربه يقضي ليله قائماً ونهاره صائماً وفجأة دخل هذا الجهاز الخبيث إلى بيته وبذل كل الجهود لمنعه ولكنه لم يستطع لقلة حيلته وضعفه وهوانه على أهله، ومع مرور الأيام قاده هذا الجهاز إلى التجربة وقال له الشيطان إن هذا الجهاز فيه خير وفائدة فخذ ما يفيدك ودع ما لا يفيدك وبعد تردد فتح الجهاز وأغراه منظر جعله يتسمر!، ومن ذلك الحين لم يطق مفارقته فقد سحره هذا الجهاز وفرَّط في صلاة الجماعة وأصبح يؤديها في البيت في الأوقات التي ليس

فيها أفلام أو مباريات! ولا يزال على وضعه نسأل الله لنا وله الهداية.

وآخر كان حافظاً للقرآن سقط كذلك أسيراً لهذا الجهاز الخبيث ففارق الصالحين والله المستعان.

وقبل طباعة هذا الكتاب هاتفني صديق لي وقال لي: إن الوضع الآن مزرٍ وأعداد المنتكسين بسبب هذا الجهاز تتزايد، ثم ذكر لي نماذج فتذكرت قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقلت إن هذا ابتلاء ولاشك فعلينا النصح والتذكير والله يفعل ما يشاء.

إن الأمر خطير جد خطير يجب ألا تهونه في أعين الناس ويجب أن نذكرهم دائماً بما يحمله هذا الجهاز من ملذات وتحريك للشهوات وتضييع للأوقات ومفارقة للأخوان ولكن النهاية ماذا ستكون؟

تغنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء لا مرد لها ... لا خير في لذة من بعدها النار(*)

أخي لا تحتقر ولا تقلل ولا تستهن بنظرة إلى محرم فإن الضلال ومجانبة طريق الهداية إما أن يكون: لشبهة لبست لدى المرء الحق بالباطل أو لشهوة استولت على قلب صاحبها فصرفته عن الحق وصدته عن طاعة الله، وفي العصر الحاضر تبدت الغرائز أمام الشباب وحاصرتهم وأحاطتهم بشراكها.

والشباب الأخيار بشر كسائر البشر، يواجههم من الغرائز ما يواجه الناس، وكثرة التساؤل من الشباب عن هذه القضية ومشكلاتها يعكس عمق المعاناة والشعور بخطورة الأمر.

وأول مشكلة هذه الشهوة تبدو من خلال نظرة آثمة أو فكرة طائشة ثم تتحول إلى طوفان هائج وبركان ثائر يوشك أن يهوى بصاحبه.

(*) ما ذكرته فيما يتعلق باستحكام الشهوة نقلته من كتاب [من أخبار المنتكسين مع الأسباب والعلاج] لصالح العصيمي ص ٢٤-٣٦ باختصار وتصرف يسير لزاماً. ارجع إليه لترى القصص والمواعظ والعبر وأخبار القوم.

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم الشر من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والعبد ما دام ذا عين يقلبها في أعين الغير موقوف على الخطر
يسر ناظره ما ضر خاطره لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

* **الحياء من إظهار شعائر الدين :-**

شاب ملتزم وعليه سمات الخير ولكنه أحياناً يحاول إخفاء بعض شعائر دينه إن لم يكن قد أخفاها أوجه إليه سؤالاً ليجيب عنه بصدق : لماذا تفعل ذلك؟ أهو الخجل من الناس والخشية من كلامهم؟ وهل أصبحنا نطلب رضا الخلق في سخط الخالق؟ لا . يا هداك الله ـ بل كن معتزاً بدينك الذي ارتضاه الله لك متعالياً بعقيدتك الإسلامية وإياك والحياء من إظهار شعائر دينك والاستخفاء بها ، ولا تأبه بكلام الناس ولا تلقي لهم بالاً فإنه كما قيل : (من كان بالطاعة عند الله قريباً كان بين الناس غريباً) .

أخي في الله : إن الحياء من إبراز مظاهر الدين مشكلة قد تتفاقم آثارها ويحصل ما لا يحمد عقباه بينما حلها سهل ـ بإذن الله ـ وبيد الملتزم نفسه ما كان الإخلاص لله والصدق مع النفس هما الدافع للتخلص من ذلك . وضع هذه الآية نصب عينيك ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] .

* عدم الصبر والتحمل لسخرية الساخرين وهمزهم ولمزهم . مما يكثر في هذه الأيام ـ وللأسف ـ الاستهزاء بالصالحين والسخرية بهم وهمزهم ولمزهم من قبل ضعاف النفوس والعقل الذين فتنهم إبليس وزين لهم سوء أعمالهم والحل : أقول : إن هذا ابتلاء وفتنة من الله فما عليك إلا الصبر والاستمرار على ما أنت عليه اصبر وما صبرك إلا بالله لا تهن ولا تضعف ولا تفتر . لا تهتم بالتعليقات الساخرة عليك ولا يحز ذلك في نفسك واعلم أن سبيل الاستقامة محفوف بالمكاره[١] .

---

(١) من جلسة مع ملتزم (٢٤ ـ ٢٥) بتصرف .

* من الملاحظات على بعض الشباب الملتزم قضاء معظم أوقاتهم خارج بيوتهم سهرات سمرات زيارات رحلات جلسات وإن كانت في خير أقل أحوالها مباحات ولكنها ربما تؤدي إلى ضياع كثير من الحقوق والواجبات منها: تضيعهم لصلاة الفجر والتفريط فيها، وأي إلتزام أي دين أي عبودية أي إسلام لمن ضيع الصلاة ولاحظ لأحد في الإسلام أضاع الصلاة من حافظ على الصلاة فقد أقام الدين ومن أضاعها فقد هدم الدين وماذا يبقى من دين إذا ضيعت الصلاة وهي آخر ما يفقد من الدين سبحان الله سبحان الله.

ومنها: إضاعة حق الوالدين وعدم القيام ببرهما وقضاء شئونهما. والداك اللذان هما سبب وجودك بعد الله فأحسن العلاقة معهما وكن باراً بهما وإياك وعقوقهما وفيهما فجاهدوا والويل كل الويل للعاق لوالديه والخزي كل الخزي لمن ماتا غضبانين عليه. وأي التزام لمن ضيع حق والديه وأين الوقت للوالدين ومنها: قطيعة الرحم فلا يعرف لرحمه زيارة ولا صلة ولا علاقة ولا معروفاً «ولا يدخل الجنة قاطع رحم».

نتيجة لذلك نرى تغير أحوالهم بعد إلتزامهم فبعضهم بعد أن كان باراً بوالديه وصولاً لرحمه ذا خلق وصله مع القريب والبعيد ترك ذلك كله وانشغل برفقته فقط دون غيرها، وهذا مزلق خطير وشر مستطير فيوصم الدين بتضييع الحقوق وترك الواجبات وأنه كان قبل التزامه خير منه بعد التزامه.

* الإفراط في بدء التزامه فيواصل الصيام والقيام، ويكره أو يحرم المباح والطيبات والتضييق على النفس ومنعها حقوقها وفي النهاية ربما يؤدي إلى الجنون والوسوسة وفقدان الحياة في النهاية.

لهفي على الإسلام من متزمت ... حسب الديانة غفلة وجموداً
ومن شباب جاءنا متأخراً ... بخلاعة يدعونها تجديداً

وتقدم الكلام عن الغلو والتشدد في الدين.

وحيث أن ظاهرة ضعف الإيمان لها دور كبير أحببنا ذكر مظاهره وأسبابه

والعلاج باختصار وإيجاز ـ تعداداً فقط(*) ـ :

أولاً : مظاهر ضعف الإيمان :

(١ ، ٢) المعاصي وقسوة القلب[١] .

(٣ ، ٤) عدم اتقان العبادات والتكاسل عن الطاعات .

(٥) ضيق الصدر .

(٦) عدم التأثر بآيات القرآن .

(٧ ـ ٨) الغفلة وعدم الغضب لله .

(٩) حب الظهور

(١٠) الشح والبخل .

(١١) قول ما لا يفعل .

(١٢) السرور بضعف المسلمين وفشلهم .

(١٣) قلة الورع .

(١٤) احتقار المعروف .

(١٥) عدم الاهتمام بقضايا المسلمين .

(١٦) انفصام عرىٰ الأخوة بين المتآخين .

(١٧) عدم استشعار المسئولية .

(١٨) الفزع والخوف عند نزول المعصية .

(١٩) كثرة الجدال والمراء .

(٢٠ ، ٢١) التعلق بالدنيا وفقد السمة الإيمانية .

(٢٢) المغالاة في الاهتمام بالنفس .

ثانياً : أسباب ضعف الإيمان :

(١) الابتعاد عن الأجواء الإيمانية .

(*) من رسالة بعنوان ظاهرة ضعف الإيمان : الأسباب ـ المظاهر ـ العلاج لمحمد صالح المنجد .

(١) وقد ذكرنا أسباب قسوة القلب وعلاجها فلينظر ص : ٨٨ من هذه الرسالة .

(٢ ، ٣) الابتعاد عن القدوة الصالحة وطلب العلم .

(٤) وجود الإنسان في وسط يعج بالمعاصي .

(٥) الإغراق في الاشتغال بالدنيا .

(٦) الانشغال بالمال والزوجة والأولاد .

(٧) طول الأمل .

(٨) الإفراط في الأكل والنوم والسهر والكلام .

ثالثاً: علاج ضعف الإيمان:

(١) تدبر القرآن .

(٢) استشعار عظمة الله .

(٣ ، ٤) طلب العلم الشرعي ولزوم حلق الذكر .

(٥) الاستكثار من الأعمال الصالحة .

(٦) تنويع العبادات .

(٧) الخوف من سوء الخاتمة .

(٨) الإكثار من ذكر الموت .

(٩) تذكر منازل الآخرة .

(١٠) التفاعل مع الآيات الكونية .

(١١) ذكر الله .

(١٢) مناجاة الله والإنكسار بين يديه .

(١٣) قصر الأمل .

(١٤) التفكر في حقارة الدنيا .

(١٥) تعظيم حرمات الله .

(١٦ ، ١٧) الولاء والبراء والتواضع .

(١٨ ، ١٩) الأعمال القلبية ومحاسبة النفس .

(٢٠) الدعاء .

والآن نكمل ما بدأنا:

* **عدم الخشوع في الصلاة:** حيث أصبح هذا شيئاً معتاداً عند كثير من الناس - إلا من رحم ربي -، والله - عز وجل - عند ذكر أوصاف المؤمنين: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

فإذا كان الخشوعُ سبباً للفلاح في الدنيا والآخرة فحري بكل مسلم أن يتحرىٰ الخشوع في صلاته، وأن يؤديها بسكينةٍ وحضور قلب، وأن يحافظ علىٰ أركانها وشروطها وواجباتها و سننها علىٰ أكمل وجه وأحسن صورة. لا أن يؤديها ببرود وكسل، أو ينقرها كنقر الغراب وتصبح الصلاة عنده مجرد عادة يومية.

* **عدم التبكير للصلاة:** سواء صلاة الجماعة أو الجمعة، حيث أن بعض الملتزمين يتأخر أحياناً ولا يأتي إلا قرب دخول الخطيب أو بعدما يشرع في الخطبة، بل إن بعضهم قد تفوته الركعة أو الركعتان، أو علىٰ الأقل تفوته تكبيرة الإحرام، وهذا التأخير قد يتكرر من الواحد منهم مرارا وتكرارا، ورغم ذلك لا ينتبه ولا يهتم يقول بعض السلف:

(إذا رأيت الرجل لا يبالي بتكبيرة الإحرام فاغسل يديك منه).

وكذلك فإن بعضهم لا يسابق للصفوف الأولىٰ رغم ترغيب النبي ﷺ في ذلك وقوله: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلا أنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ، لاستَهَمُوا**»[١].

وقال ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ: أوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ: آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أوَّلُهَا**»[٢].

فتجد الواحد منهم يدخل المسجد مبكراً ويرىٰ الصَّف الأول فيه أماكن شاغرة فلا يجلس فيها، بل يجلس في أيِّ مكان آخر من المسجد. وقد يرىٰ بعضهم

---

(١) مُتفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٥) ومُسلم (٤٣٧).

(٢) أخرجه مُسلم (٤٤٠) والترمذي (٢٢٤) وأبو داود (٦٧٨) والنِّسائي (٨٢٠) وابن ماجه (١٠٠٠).

مكاناً شاغراً خلف الإمام في المكان الفاضل فيتركه، ويذهب لآخر الصفِّ أو وسطه. وهؤلاء قد حَرَموا أنفُسهم أجراً عظيماً.

* **عدم الحرص على أداءِ النَّوافلِ:** من صيام؛ كَصِيام الإثنين والخميس، أو عشر ذي الحجة، أو على الأقلِّ صيام الأيام البيض (وهي ثلاثة أيامٍ من كُلِّ شَهرٍ)، أو صيام يوم عرفة لِغير الحاجِّ، أو يوم عاشوراً، أو ست من شوال.

وكذلك التَكاسل عن صَلاةِ النَّافلة: كقيامِ الليل، أو السُّنَنِ الرواتب، أو صلاة الضُّحى، أو غير ذلك من النَّوافل.

وإن صلى بعضهم شيئاً من الليل فقد يكتفي بثلاث ركعات خَفيفات، وبعضهم قد يُصلي خمساً، وقليل منهم من يُصلي في الليل إحدى عشر ركعة كما كان يفعل النبي ﷺ.

* **عدم الإكثار من قِراءة القرآن وحفظه:** ولا شكَّ أن قراءته من أهم وسائل الثبات، وهي من أفضل الأعمالِ إلى الله - عز وجل - ورسوله، قال ﷺ: **«خَيرُكُم مَن تَعلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ»**[1].

وقال ﷺ: **«إن لله أهْلينَ مِنَ النَّاسِ» قالُوا: يَا رسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قال ﷺ: «هُمْ أهْلُ القُرْآنِ أهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»**[2].

وقال ﷺ: **«اقرَءُوا القُرآنَ فإنَّهُ يَأتِي يَوْمَ القِيامَة شَفِيعاً لأصْحَابِهِ، اقرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقرة، وسُورة آل عِمْرانَ، فإنَّهُمَا تَأتِيَان يَوْمَ القِيَامَةِ كأنَّهُمَا غَمَامَتَان، أوْ كأنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أوْ كأنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أصْحَابِهِمَا، اقرَءُوا سُورة البَقرَةِ: فإنَّ أخْذَها بَرَكة، وتَرْكَهَا حَسْرَة، ولا تَسْتَطِيعُهَا البَطَلة»**[3].

وقد يمرّ على بعضهم اليوم واليومين والثلاثة والأربعة، وهو لم يقرأ شيئاً من القرآن، وإن قرأ فقد يقرأ شيئاً يسيراً. وبعضهم قد يمرّ عليه الشهر والشَّهران وهو

---

(١) أخرجه البُخاري (٥٠٢٧، ٥٠٢٨) وأبو داود (١٤٥٢)، والتِّرمذي (٢٩٠٧).

(٢) صحيحٌ: أخرجه ابن ماجه (٢١٥) والدَّارمي (٣٣٢٦) وأحمد (٣/ ١٢٧، ٢٤٢).

(٣) أخرجه مُسلم (٨٠٤).

لم يقرأ شيئاً من القرآن، وهذا لا شكّ أنه من الحرمان للعبد.

* **تركُ الأوراد والأذكار:** كأذكار الصَّباح، و المَساء، والأكل، والنوم، وغير ذلك من الأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ فإنَّ كثيراً ممن يُرىٰ عليه الاستقامة والصَّلاح غالباً لا يُحافظ علىٰ هذه الأوراد والأذكار، وتجده لا يذكر الله إلا قليلاً، وبعضهم قد يمر عليه اليوم كاملاً لا يذكر الله ـ عز وجل ـ فيه إلا قليلاً، أو لا يذكره نهائياً.

والله ـ عز وجل ـ قد رغَّبَ في الإكثار من ذكره، ورتَّبَ علىٰ ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل، قائلاً: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ويقول ﷺ: «**سبق الْمُفَرِّدُونَ**» قالوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رسُول الله؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ الله كَثِيراً وَالذَّكِرات**»(١).

ومع كل هذا الفضل للذّكرِ إلا أنّ بعضهم قد يجلس لوحده أو قد يمشي في سيّارته وتمضي عليه السّاعات الطّوال وهو ساهٍ لاهٍ ولا يغتنم الفرصة بذكرِ الله ـ عز وجل ـ أو تسبيح وتحميد واستغفار.

* **سوءُ الأخلاقِ والمُعاملة:** فتجد بعضهم مع التزامه يكون سيء الخلق، وهذا يظهر في المنزلِ أولاً، ويكون سيء الخلق مع والديه، ومع إخوانه وأخواته وأقاربه، وأيضاً في مدرسته وعمله وفي أيِّ مكان. فإذا تعامل مع النَّاس عاملهم بِشِدة وعدم سماحة ولين، وعدم تقدير للمواقف التي تحتاج إلىٰ سماحة ولين وعفو، فلا تجده سمحاً في البيع ولا في الشراء، بل يأخذ الذي له وقد لا يُعطي الذي عليه، وإن أعطىٰ أعطىٰ بمنّة، وقد يغش في بيعه أيضاً والرسول ﷺ: «**منَ غشَّ فليسَ مِنّا**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٢) والترمذي (١٣١٥) وابن ماجه (٢٢٢٤).

* **عدم تقبّل النَّصيحة:** فإنَّ بعضهم لو أُهدي إليه نَصيحة أو بُيِّنَ له مخالفة يراه مُرتكباً لها؛ فإنه يتبرَّم ويضيق صدره، ويتمنَّىٰ أن لو لم يسمع مثل هذا الكلام، وقد يرىٰ أنّ في إهداء النَّصيحة له فيه تَصيّد لِعيوبه، ويرىٰ أنه اتّهامٌ له بالتّقصيرِ؛ لأنه في نظر نفسه ملتزمٌ ولا يحتاج لِوعظ. وهذا خطأ منه؛ لأنَّ كلّ إنسان مُعرضٌ للوقوع في الخطأ والتَّقصير، وليسَ أحداً معصوماً غير الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فحريٌّ بمن أهدىٰ له نصيحة صادقة أن يتقبّلها بصدر رحب، وأن يُحاول أن يعمل بها إذا كانت موافقة للكتابِ والسُّنَّة.

* **إضاعة الأوقاتِ فيما لا فائدة فيه:** فمن المحزن جداً أن ترىٰ كثيراً من الملتزمين يُضيّعون كثيراً من الأوقاتِ، وقد تضيع هذه الأوقات في غير المباحات، بل محرمات ومكروهات؛ كالغيبة والكلام الفاحش..

قال ﷺ: «**لا تَزُولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامةِ حتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ: عُمُرِهِ فِيمَا أفناهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فعل، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمْ أبْلاهُ**»[(١)].

فقوله ﷺ: «**عُمُرِهِ فِيمَا أفْنَاهُ**» فهو سؤالٌ عن وقته فيما ضَيَّعه وأفناه.

* **الإشتغال بالمَلْهِيات والأمورِ التَّافهةِ:** والتي لا تُقدّم ولا تؤخّر، ويُقابله الغَفلة عما هو أهم منه.

* والسرف ومجاوزة الحد في المباحات من طعام وشراب ولباس ومركب وكلما توسع الإنسان في المباحات فقد لذة الطاعة، لأن من تجاوز الحد في أكله وشربه ولباسه عاد عليه بمرض الكسل فتثقل عليه الطاعة.

* **عَدَمُ التَّفقه في الدِّين:** فإنَّ بعض الملتزمين قد يُخطيء في كثيرٍ من العبادات وهو لا يشعر، ولا يحاول أن يتفقَّه، وأن يتعلم أمور دينه علىٰ ما ينبغي ليتفادىٰ الوقوع في مثل هذه الأخطاء. والأدهىٰ والأمرّ أن يكون جاهلاً بعقيدته وما يناقضها ربما خرج من الملة وهو لا يدري لأنه جاهل لم يتفقه في عقيدته تراه

---

(١) صَحيحٌ: أخرجه الترمذي (٢٤١٧) والدَّارمي (٥٣٧) من حديث أبي برزة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ وقال: الترمذي: (قال هذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) ووافقه الألباني.

يتخبط لا يعرف الواجب من المحرم والسنة من البدعة وما يخرج من الملة وما لا يخرج لا يعرف الحلال من الحرام.

فعلى المسلم أن يتفقه في دينه ويطلب العلم الشرعي وليحرص في طلبه للعلم على الاخلاص لله تعالى(*).

* حفظ كتاب الله وما تيسر من صحيح السنة ـ الاجتهاد في تحصيل العلم ـ الصبر على طلبه ـ العمل بما تعلمه ـ الحرص على فهم مراد النصوص الشرعية ـ تقييد الفوائد وفهمها وحفظها ـ حفظ بعض المتون وضبطها على شيخ متقن ـ مدارسة العلم فإن احياءه في مذاكرته ـ أخذ العلم من العلماء المعروفين بصحة العقيدة وسلامة المنهج ـ محبة العلماء واحترامهم وتقديرهم ـ سؤال أهل العلم عما أشكل عليه ـ رحابة الصدر في مسائل الخلاف الفرعية الاجتهادية ـ وليحذر كل الحذر من التصدر قبل التأهل ـ والتسرع في الفتوى دون التروي ـ عدم مراعاة أدب الخلاف ـ التحدث بغير علم ـ عدم التثبت في النقل ـ الثناء على نفسه أو علمه ـ الاقتصار على الكتب والأشرطة دون الرجوع إلى العلماء ولله در القائل:

إذا رمت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى تصير أضل من توما الحكيم(**)

فتجده لا يقرأ ولا يستمع لأشرطة علمية، بل يستمر على ما هو عليه من العبادات التي عرفها منذ بداية التزامه أو منذ وعى هذا الدين، حتى ولو كان فيها بعض الأخطاء.

* **عدم إنكار المنكر:** سواء في البيت أو في السوق أو في أي مكان. فتجدهم يكونون في البيت مع أهليهم مع وجود شيء من المنكرات مما هو محرم ثم لا ينكره عليهم ولا يناصحهم ولا يخرج من المكان الذي فيه المنكر بل يبقى معهم.

(*) وتقدم الكلام عن أهمية التوحيد والعقيدة الصحيحة.

(**) جلسة مع ملتزم (٤٢ ـ ٤٤) وعليك بأدب الطلب ومنتهى الأدب للشوكاني وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر وكتاب العلم لابن عثيمين وحلية طالب العلم لبكر أبوزيد.

بل وقد يجلس مع أناس يغتابون أو يشاهدون ويستمعون أمورا محرمة، أو مع أناس يدخنون ولا ينكر ولا يحرك ساكناً، بل يلتزم الصمت ويقول: أنا أنكر بقلبي وهذا أضعف الإيمان!

ونقول لمثل هذا: لا أيها الحبيب إن عليك أن تنكر بلسانك إن كنت تستطيع ذلك فتناصح مثلاً أهلك أو من تجلس معهم وتبين لهم أن ما هم عليه يعتبر أمراً محرماً، فإن استجابوا لك فالحمد لله؛ وإلا فعليك حينها مغادرة هذا المجلس الذي فيه المعصية، أما الإنكار بالقلب بدون ترك المجلس الذي فيه المنكر، فهذا لا يكفي.

بل قد لا ينكر بعضهم حتى بقلبه، ولا يتمعر وجهه، بل تجده يضاحك أهل المنكر وهم يمارسون منكرهم، وكأنهم لم يفعلوا محرما، وعدم إنكار المنكر لا شك أنه يشجع أهل المعاصي بالاستمرار على معاصيهم وعدم التوبة منها إذا لم يجدوا من يناصحهم أو ينكر عليهم، خاصة إذا كان معهم من يكون عليه آثار الصلاح.

ولو أن كل إنسان صادق في إيمانه والتزامه عندما يرى منكراً يقوم بالإنكار على صاحبه مباشرة ويطلب منه تركه أو أنه سيترك له المكان ويخرج لما انتشرت كثيرا من المنكرات حتى أصبحت عند كثير من الناس كأنها مباحات، وما ذلك إلا لقلة الإنكار عليهم، ولاختفت بإذن الله ـ عز وجل ـ هذه المنكرات ولعرف أصحابها قبحها وشؤمها ولاستحيوا من المجاهرة بها بين الناس، ولخجلوا في البداية ممن يناصحهم، ثم قد يتركونها بعد ذلك نهائياً طاعة لله ـ عز وجل ـ. وبذلك تقل المعاصي والمنكرات بإذنه ـ عز وجل ـ.

قَالَ أبُو بَكْرٍ الصديق ـ رضي الله عنه ـ: بَعْدَ أنْ حَمِدَ اللهَ وأثْنَى عَلَيْه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّكُمْ لَتَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»**[(١)].

(١) أبو داود (٤٣٣٨) الترمذي (٢١٦٩) وأحمد (١/ ٢) وابن ماجه (٤٠٠٥).

وقال ﷺ: «مَنْ رَأىٰ مُنْكَراً فاستَطاعَ أنْ يُغَيِّرَهُ بِيَده فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَستطعْ فَبِلِسَانِه، فإنْ لَمْ يَستطعْ بِلِسَانِهِ فَبقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمَانِ»[1].

ولا نَنسىٰ قول الله - عز وجل - في وصف ما تميَّزت به أمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

* **التَّساهل في بعض الأمور التي لا ينبغي التساهل بها:** كالتساهل مثلاً في حجاب المرأة ولباسها، والسّماح بلبس الملابس الضيّقة والغير ساترة أحياناً، والسماح لها أيضاً بالذهاب إلىٰ الأسواق أو الخياط أو غير ذلك لوحدها دون محرم، أو دون وجود امرأة معها فيتسبب ذلك بخلوتها مع البائعين داخل المحل أو مع الخياط.

وكذلك التساهل في لباسِ البنات الصّغيرات حيث أن البعض قد يَسمح لزوجته بإلباس بناته ملابس قصيرة، بل قد تكون قصيرة جداً بحجة أنهن صغيرات، وقد تصل البنت أحياناً إلىٰ سنٍّ العاشرة أو أكثر وهي تلبس ملابس قصيرة إلىٰ الركبة تقريباً.

ومن التّساهل أيضاً: تَساهل بعضهم في أمر اللحية بتقصيرها وتعديلها واللعب بها.

ومن التساهل أيضاً: استقدام الخادمة بدون محرم، أو سفر زوجته أو أحد محارمه بدون محرم أو نحو ذلك وهذا لا يجوز.

* **الكذب:** فتجد أن بعضهم قد يكذب في بعض الأمور الصغيرة ويظن أن ذلك لا يضره شيئاً، كالكذب في التخلص من موقف حرج يمر عليه، أو ليتفادىٰ خسارة مالية، أو مجاملة لصديق له يريد نصرته، أو لبيع وشراء لتنفق سلعته، أو ليضحك من حوله.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) وأبو داود (٤٣٤٠).

* **الإهمال في حق الأولاد:** وعدم تربيتهم التربية الصحيحة، فتجد البعض يقصر في حق زوجته ويهملها ويتغيب كثيراً عن البيت بحجة الإنشغال في أمور الدعوة إن كان له نشاط فيه أو الانشغال في التجارة، أو أمور أخرىٰ. فيترك زوجته تقاسي الوحدة والملل والهموم لوحدها، أو يترك أولاده هملا بدون رقابة وتوجيه، وقد ينحرفون لتعرفهم علىٰ رفقاء سوء فيكون هذا الأب سبباً لفساد ذريته والعياذ بالله.

* **مفارقة الجماعة وإيثار حياة العزلة والتفرد:** فإن الذئب يأكل من الغنم القاصية فكلما انفرد الإنسان بنفسه وترك أخوانه واعتزلهم فإنه سيصاب بالفتور لأن المرء قليل ضعيف بنفسه، قوي كثير بإخوانه الصالحين، والطريق شاق يحتاج إلىٰ تجديد ونشاط وشحذ الهمم، وهذا لا يتسنىٰ للإنسان إلا بالصحبة والجماعة الصادقة فإذا استمر الملتزم بعيداً عن إخوانه الأخيار فلن يسلم من اليأس والملل والسأمة(*) بل ربما راودته نفسه بالرجوع إلىٰ لرفقته وجماعته الذين كان معهم قبل الالتزام والذين لا يعرفون إلتزاماً ولا طاعة بل همهم الشهوات المحرمة ودروب الشرور والعصيان. وهذا مزلق خطير جداً ومن أولويات الالتزام أن يفارق البيئة والمجتمع والصحبة التي تعين علىٰ المعصية وأن يهجرها ويصبر ويوطن نفسه مع الصالحين حتىٰ ينجو بنفسه ثم أقول إن البحث عن العلماء والصالحين والدعاة المؤمنين الذين هم مفاتيح للخير مغاليق للشر والالتفاف حولهم أكبر معين بعد الله سبحانه علىٰ الثبات والاستقامة علىٰ الالتزام بطاعة الله.

* **التقصير في مجال الدعوة:** فبعض الملتزمين - هدانا الله وإياهم - ليس له نشاط يذكر في الدعوة، فلا ينتفع منه أحد بنصيحة أو توجيه، فيرىٰ الناس من حوله ويرىٰ إخوانه وأصحابه في ضلال ولا يهتم بذلك ولا يكلف نفسه بدعوتهم أو مناصحتهم أو إعطائهم شيئاً ينتفعون به.

(*) الإلمام في أسباب ضعف الإلتزام لحسين محمد شامر (٢٤ - ٢٥).

وقد يتعذر البعض بأنه لا يستطيع وعظ الناس وتذكيرهم وليس عنده العلم الكافي لذلك. ولكن هذا ليس بعذر؛ لأن مجال الدعوة إلىٰ الله ـ عز وجل ـ ليست موقوفة علىٰ الخطابة والإلقاء والوعظ باللسان فحسب بل لها مجالات كثيرة، فمنها: الكتابة، وإهداء الشريط، والكتيب الإسلامي، أو الرسالة القصيرة... إلىٰ غير ذلك مما هو بمقدور كل شخص، والرسول ﷺ يقول: **«بلغوا عني ولو آية»**(١) والكل يستطيع تبليغ هذه الآية بأي مجال من المجالات المذكورة.

ولكن العجب ممن يرىٰ أمامه هذه المجالات المتعددة ولا يكلف نفسه في استغلالها، بل يركن إلىٰ الراحة والكسل، بل بعضهم لا يساهم في القليل في ماله في مجال الدعوة، فتجده يصرف الآلاف علىٰ أمور كثيرة ـ وغالبها كماليات ليست ضروريات ـ ولكنه لو طلب منه اليسير في مجال الدعوة لتعذر بسوء الظروف المادية وكثرة الديون وغير ذلك من الأعذار الواهية، فلا هو ساهم في الدعوة بلسانه ولا بقلمه ولا بجهده ولا بماله، فلا نفع فيه إطلاقاً، وهذا هو حال من حرم نفسه الأجر العظيم.

قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. وقال ﷺ: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»**(٢).

وقال ﷺ: **«من دعا إلىٰ هدىٰ: كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلىٰ ضلالة: كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١) والترمذي (٢٦٦٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٤٢) ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) والترمذي (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٦٠٩).

* **التهاون بأمر العمل الوظيفي:** فتجد بعض الملتزمين يتهاون بأمر الدوام الرسمي لوظيفته التي يعمل بها، فتجده يتأخر أحيانا عن موعد الحضور أو يخرج من عمله لغير عذر وبدون استئذان. وبعضهم يتأخر عن موعد حضورهم ويسجل حضوره في وقت مبكر وكأنه حضر مبكراً، وهذا كذب وسرقة من الوقت الوظيفي.

وبعضهم قد يستغل ما تحت يده من المعدات أو الأدوات أو السيارات الخاصة بالعمل لأموره الشخصية، وهذا حرام، لأنها من الأموال العامة التي هي لجميع المسلمين، ولا يحق الاستفادة منها إلا في مجال العمل الرسمي فقط. هذه بعض الأمور التي لوحظت على بعض الشباب الملتزم.

وأقول: من لم يعتصم بالله ابتلى بالضلالة، وعدم الانقياد للشرع سبب للغواية، ومن لم يبتغ بالدين وجه الله ضل، والتساهل بالذنوب سبيل الضلالة، واتباع الهوى سبيل الردى، والعجب وحب الظهور يحبط العمل ويقصم الظهور، لا تحقرن من الذنوب شيئاً فإنها تجتمع على العبد فتهلكه خصوصاً في الخلوات، والرفقة الصالحة من أعظم أسباب الاستقامة ـ بعد الله ـ ومن لم يتوله الرحمن تولاه الشيطان، ولابد من أراد النجاة والسلامة والثبات فليحرص على تمكن الإيمان في قلبه وغرس عظمة الله وحب الله ورسوله، والعلم النافع حتى لا يتأثر بالشهوات ولا الشبهات ولا ما يواجهه في هذه الدنيا من شرور وفتن وإحن ومحن. الفراغ له دور عظيم في انحراف الشباب، والنفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية ولابد. ومن لم يشتغل بالحق ابتلي بالباطل ومن غفل عن عواقب إهمال النفس يندم ولات ساعة مندم. المواعظ والرقائق وسير الصالحين هي سياط للقلوب وإيقاظ لها من الغفلة.

أخي في الله: إن نعمة الهداية أغلى ما يملكه المرء وأتم وأكمل نعمة يمتن الله بها على العبد، فهل ندرك عظم مسئوليتنا في الحفاظ على هذه النعمة والسعي للثبات على هذا الصراط المستقيم، فيا أيها العبد استعن بالله وتوجه له وحده

بالدعـاء والرجاء والاستعانة والبراءة من كل حـول وقوة. وخذ بالأسباب المعينة علىٰ ذلك فالله سبحانه كما خلق المسببات خلق لها أسباباً، وقد بيَّن في كتابه أن للهداية أسباباً وللضلالة أسباباً، وتقصير العبد في معرفة أسباب الهداية وأسباب الغواية ليس بحال بأقل من تقصيره في سلوك حق رآه أو اجتناب باطل علمه.

فـالزم رعـاك الله الحق وإن كنت وحدك فـلابد مـن أنس وإن طال الطريق وكـثر قطاعه والله وحده هو الهادي.

* * *

غربة الإسلام(*)

أبكي على دين حق كيف ينهار … من بعد ما بان للإسلام أنوارُ
أبكي على غربة الإسلام إذ حصلتْ … في وقتنا وابتدا للدين إدبارُ
أبكي عليها بكاءَ الطفل في صغرٍ … طفل يتيم فلا أهلٌ ولا جارُ
أبكي عليها بكاءً لا مثيلَ له … أبكي ودمعي على الخدّين مدرارُ
فانظُرْ إلى وقتنا كم فيه من فتنٍ … فيه الحوادثُ والأشرار أشرارُ
وانظر إلى الشرّ قد أبدى نواجذَه … من المصائب عقلُ المرء يحتارُ
قد قلدوا أهل شركٍ في خلائقهم … وبالرذائل، أما الحق إهدارُ
هل قلدوهم بصاروخ وقنبلةٍ … أم بالمدافع لا والله ما صاروا
بل قلدوهم بأشياء محرمةٍ … من السفالة فالجهال قد حاروا
والجهل قد عم أين الحق يطفئه … فقد طغى لأمور الشر تيارُ
أين الشهامة والأخلاق هل ذهبت … أين الرجولة والأحرار هل غاروا
وكل يوم ترى في دهرنا بدعًا … وقد أحاطت بنا والله أخطارُ
أخشى العقوبة تأتينا كما وقعت … على القرون كما جاءتك أخبارُ
أخبارهم في كتاب الله قد وردت … فيهم لذي العقل والواعين تذكارُ
أخشى من الشر أن نضحي كأندلسٍ … بعد المهانة عبدانٌ وكفارُ
أين الأسود ذوو التوحيد من قدمٍ … ومن لهم في الوغى كرّ وتكرارُ
أين الذين لدين الله قد رفعوا … ونزّهوه وللإسلام قد ثاروا
أين الذين لأهل الشرك قد كسروا … تشهد لهم في جميل الفعل أعصارُ

(*) أضواء الشريعة، العدد الثالث لعام ١٣٩٢ ص ١٨٢ عبد الله عبد الواحد بن خميس كلية الشريعة بالرياض.

يا أمـة الدين هبّـوا من تغـافلكم ... إن الرقـــودَ بـه ذل بـه عـــارُ
عـودوا إلىٰ الحق ليس الغير ينفعكم ... توبـوا إلىٰ الربِّ إنَّ الربَّ غـفـارُ
قوموا جميعًا فليس الذل يرفعكم ... بالذل لا تنقـضي للمـرء أوطارُ
نرجـــو الإلـه بمنّ منه ينقــذنا ... من المصـائب فـالأزمـان أكـدارُ
نرجــوه ينصـر هـذا الدين في أمم ... حـتىٰ يقـومَ له في الكون أنصـارُ
حـتّىٰ نكون أسـودًا حـول ملّتنا ... حتّىٰ يعـودَ لنا من خـصمنا الثارُ
حتىٰ نحـارب أعـداءً ونخـرجـهم ... ولا يـدور مـن البـــاغـين ديارُ

***

يا هذه الدنيا أصيـخي واشـهـدي ... أنَّا بـغـيـر مـحـمـدٍ لا نقـتـدي
لا نستعـيض عن الشريعة منهجاً ... وضـعـتـه فكرةُ مسـتـغلٍ ملحدِ
أبِكُلِّ يوم فكـرةٌ وعــقــيــدةٌ ... تغـزو الحمىٰ من تاجـر مسـتوردِ
يُغـري بهـا البُسَطاءُ من أبنائنا ... بالموبقـات وبالحـسـان الخُـرَّدِ
ويصـدهم عن دينهم بخـديعـة ... مـا شـابتـهـا حـيلةُ المُتَـصَـيِّـدِ
نبني ويهـدم غـيـرنا بدسـيسـةٍ ... شـتـان بين مـهـدم ومُـشَـيِّـدِ
لا رأس مـال الغـرب ينفـعنا ... ولا فوضىٰ شيوعي سخيفٍ أبلدِ
وسطًا نعـيش كـمـا يريد إلهنا ... لا نستـعـيـر مـبادئنا لا نحـتـذي

***

شـريعـة الله للإصـلاح عنوان ... وكل شيء سوىٰ الإسـلام خسران
لما تركنا الهـدىٰ حلت بنا محن ... وهاج للظلم والإفـسـاد طوفـان
تاريخنا من رسـول الله مـبـدؤه ... ومـا عـداه فـلا عـز ولا شـان
قـرآننا مـشـعل يهـدي إلىٰ سبل ... من حاد عن نهجها لاشك خسران
قـد ارتضـينا حكمـا لا نبـدله ... مـادام ينبض فـينا منه شـريان

***

ملكنا هذه الدنيا قروناً ... وأخضعها جدود خالدونا
وسطرنا صحائف من ضياء ... فما نسي الزمان ولا نسينا
حملناها سيوفًا لامعات ... غداة الروع تأبى أن تلينا
إذا خرجت من الأغماد يومًا ... رأيت الهول والفتح المبينا
وكنَّا حين يأخذنا ولي ... بطغيان ندوس له الجبينا
تفيض قلوبنا بالهدى بأسًا ... فما تغضي عن الظلم الجفونا
وما فتئ الزمان يدور حتى ... مضى بالمجد قوم آخرونا
وأصبح لا يرى في الركب قومي ... وقد عاشوا أئمة سنينا
وآلمني وآلم كل حرا ... سؤال الدهر أين المسلمينا
ترى هل يرجع الماضي فإني ... أذوب لذلك الماضي حنينا
بنينا حقبة في الأرض ملكًا ... يدعمه شباب طامحونا
تعهدهم فأنبتهم نباتًا ... كريمًا طاب في الدنيا غصونا
همو ورد والحياض مباركات ... فسالت عينهم ماء معينا
شباب ذللوا سبل المعالي ... وما عرفوا سوى الإسلام دينا
إذا شهدوا الوغى كانوا كماه ... يدكون المعاقل والحصونا
وإن جنى المساء فلا تراهم ... من الإشفاق إلا ساجدينا
شباب لم تحطمه الليالي ... ولم يسلم إلى الخصم العرينا
ولم تشهدهم الأقداح يومًا ... وقد ملأوا نواديهم مجونا
وما عرفوا الأغاني مائعات ... ولكن العلى صيغة لحونا
وقد دانوا بأعظمهم نضالاً ... وعلما لا بأجرئهم عيونا
فيتحدون أخلاقًا عذابًا ... ويأتلقون مجتمعًا رزينا
فما عرف الخلاعة في بنات ... ولا عرف التخنث في بنينا
ولم يتشدقوا بقشور علم ... ولم يتقلبوا في الملحدينا

ولم يتـبـجـجـوا في كل أمـر خطيـر كي يقـال مـثـقـفـونا
كـذلك أخـرج الإسـلام قـومي شـبـابًا مـخلصًـا حـرًا أمـينا
وعلمـه الكرامـة كـيف تبنى فـيـابى أن يذل أو يهـونا
دعـوني من أمـان كـاذبات فـلـم أجـد المنى إلا ظـنونـا
وهـاتـوا لـي مـن الإيمـان نـورًا وقـووا بين جنبي اليـقـينا
أمـد يدي فـأنتـزع الرواسي وأبني المجـد مـؤتلقًـا مكينا

أسأل الله أن يهـدينا وإياك لصـراطه المستـقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاه إنه سميع مجيب . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

* * *

وأختم هذه الرسالة بما قاله الفقيه الزاهد أبو اسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري ـ رحمه الله ـ في قصيدته الزهدية التي أولها: تفت فؤادك الأيام فتا :ـ

تَفُتُّ فُؤادكَ الأيامُ فتَّا ... وتَنحِتُ جسمَكَ الساعاتُ نحتاً
وتدعوكَ المنون دُعاءَ صدقٍ ... الا يا صاحِ أنتَ أُريدُ أنتَ
أراكَ تُحبُّ عُرساً ذاتَ غَدْرٍ ... أبتَّ طَلاقَهَا الأكياسُ بتَّا
تنامُ الدَّهرَ ويْحكَ في غَطيطٍ ... بِها حتَّى إذا مِتَّ انْتَبهْتا
فَكَم ذا أنت مَخدُوعٌ وحتَّى ... متى لا تَرْعَوي عَنْها وحتَّى
أبا بكرٍ دَعَوتُكَ لو أجَبْتَا ... إلى ما فيه حظُّكَ لو عَقِلتَا
إلى علمٍ تكونُ به إماماً ... مُطاعاً إن نَهَيْتَ وإن أمرْتَا
ويجلو ما بِعَيْنِك من عَشَاها ... ويَهديكَ الطريقَ إذا ضَلَلْتا
وتحمِلَ منهُ في ناديكَ تاجاً ... ويكسُوكَ الجمَالَ إذا غربتا
ينالُك نفْعُهُ ما دُمتَ حيَّا ... ويبقى ذكْرُه لك إن ذَهَبْتا
هو العضْبُ المُهنَّدُ ليس ينبُو ... تُصيبُ به مَقاتِلَ من أردتا
وكَنزاً لا تخافُ عليه لِصّاً ... خفيفَ الحَمْلِ يوجَدُ حيث كُنْتا
يزيدُ بكثرةِ الإنفاقِ منهُ ... وينقُصُ إنْ به كفّاً شددْتا
فلو قد ذُقْتَ من حَلْواه طعماً ... لآثَرت التعلُّمَ واجتهَدْتا
ولم يَشْغلك عنه هوىً مُطاعٌ ... ولا دُنيا بزُخْرُفِها فُتِنْتَا
ولا الهاكَ عنه أنيقُ روضٍ ... ولا خود بزينَتِها كَلِفْتا
فقُوتُ الرُّوح أرواحُ المعاني ... وليس بأنْ طَعِمْتَ ولا شربتا
فواظِبْهُ وخُذ بالجِدِّ فيه ... فإن أعطاكَهُ اللهُ انتفعْنا
وإن أعطِيتَ فيه طويلَ باعٍ ... وقال النَّاسُ: إنَّكَ قد علمتا
فلا تأمنْ سُؤالَ اللهِ عنهُ ... بتوبيخٍ علِمت فهل عمِلْتَا
فرأسُ العلم تقوى اللهِ حقّاً ... وليسَ بأنْ يُقال: لقد رأسْتا
وضافي ثوبكَ الإحسان لا أن ... تُرى ثوبَ الإساءَةِ قد لبِستا

إذا مـا لـمْ يُفِـدْكَ العِلمُ خـيـراً ... فـخـيـرٌ منهُ أنْ لو قـدْ جَـهِلْتَـا
وإن ألْقـاكَ فـهـمُكَ في مـهـاوٍ ... فليتكَ ثم ليتكَ مـا فَـهِـمـتـا
ستجني من ثمار العجزِ جهْلاً ... وتصغُـرُ في العيـونِ إذا كبِـرتا
وتُفـقَـدُ إنْ جَـهِلتَ وأنت باقٍ ... وتُوجَـدُ إن علِمتَ وقـد فُـقِـدتا
وتذكـرُ قَـولَتي لك بعـدَ حينٍ ... إذا حـقـاً بـهـا يومـاً عَـمِلتَـا
وإن أهملتَـهـا ونبـذت نصـحـاً ... ومِلْتَ إلى حُطامٍ قـد جـمـعـتـاً
فـسـوف تَعضُّ من ندمٍ عليـهـا ... ومـا تُغني النَّدامـةُ إن ندمْـتَـا
إذا أبصـرتَ صـحْبكَ في سـمـاءٍ ... قـد ارتفـعـوا عليكَ وقـد سَفَلْتَا
فـراجـعْـهـا ودعْ عنكَ الهُـوينا ... فـمـا بالبُطءِ تُدركُ مـا طلبـتـا
ولا تَحـفـلْ بمالكَ والْهُ عـنهُ ... فليس المالُ إلا مـا علِمـتـا
وليس لجاهلٍ في الناس فـضلُ ... ولو مُـلْكُ الـعـراق له تـأتَّى
سـينطقُ عنكَ عِلْمُكَ في نديٍّ ... ويُكتبُ عَنكَ يَومـاً إن كَـتَـبْـتـا
ومـا يُغْنيكَ تشْـيـيـدُ المبـاني ... إذا بالجهْلِ نفْـسَكَ قـد هَدَمْـتـا
جـعلتَ المالَ فـوقَ العِلمِ جـهـلاً ... لعمْرِكَ في القـضيّـة ما عَـدلْتـا
وبينهـمـا بنصِّ الوحي بَوْنٌ ... سـتـعـلَمُـهُ إذا طهَ قـرأتـا
لـئن رفَـعَ الغنيُّ لـواء مـالٍ ... لأنت لِواءَ عِلمِكَ قـد رفـعْـتـا
وإن جلس الغنيُّ على الحشَـايا ... لأنت على الكواكبِ قـد جلَسـتـا
وإن ركبَ الجـيـادَ مُـسـوَّمـاتٍ ... لأنت مناهجَ التـقـوىٰ ركِـبْـتَـا
ومـهـمـا افـتضَّ أبكارَ الغـواني ... فَكَمْ بِكرٍ من الحِكَم افـتـضـضـتـا
وليس يَضُـرُّكَ الإقْـتـارُ شيـئـاً ... إذا مـا أنتَ ربَّكَ قـد عـرفْـتَـا
فـيـا مـا عندَه لكَ من جـمـيلٍ ... إذا بِفَنَاءِ طاعَـتِـهِ أنخْـتَـا
فـقابل بالقبـولِ صحيح نصـحي ... فـإنْ أعـرضت عنه فـقـد خَـسِـرْتَا

وإن راعيتَهُ قولاً وفعلاً ... وتاجرتَ الإلهَ بهِ ربحتا

فليستْ هذهِ الدُّنيا بشيءٍ ... تسُوؤُكَ تارةً وتَسُرُّ وقتا

وغايتُها إذا فكّرتَ فيها ... كفيئِكَ أو كحُلْمكَ إن حلُمتا

سُجنْتَ بها وأنتَ لها مُحبٌّ ... فكيف تُحبُّ ما فيه سُجِنْتا

وتُطعمُكَ الطعامَ وعن قريبٍ ... ستَطْعَمُ منك ما منها طَعِمتا

وتعرَىٰ إن لبِسْتَ بها ثياباً ... وتُكسىٰ إن ملابسَها خَلَعْتا

وتَشهدُ كلَّ يومٍ دفنَ خِلٍّ ... كأنَّكَ لا تُرادُ بما شَهِدتا

ولم تُخلق لتعْمُرَها ولكنْ ... لتعْبُرها فَجِدَّ لِما خُلِقْتا

وإن هُدِمَتْ فزدها أنتَ هَدْماً ... وَحصِّن أمْر دِينك ما استطعتا

ولا تحزنْ علىٰ ما فاتَ مِنْها ... إذا ما أنتَ في أخراك فُزْتا

فليس بنافعٍ ما نلتَ مِنْها ... مِنَ الفاني إذا الباقي حُرِمْتا

ولا تضحكْ مع السُّفهاءِ يوماً ... فإنّك سوف تبكي إنْ ضَحِكْتا

ومن لك بالسُّرور وأنت رهنٌ ... وما تدري أتُفدىٰ أم غُلِلْتا

وسَلْ من ربِّك التوفيق فيها ... وأخْلِصْ في السؤال إذا سألتَا

وناد إذا سجدْت له اعترافاً ... بما ناداهُ ذو النُّونِ بنُ متّىٰ

ولازم بابَهُ قَرْعاً عساه ... سيَفْتَحُ بابَه لكَ إنْ قَرَعْتا

وأكْثِر ذِكْرَه في الأرض دأباً ... لتُذكر في السماءِ إذا ذَكَرْتَا

ولا تقُل الصِّبا فيه امتهالٌ ... وفكِّرْ كم صَغيرٍ قد دَفَنْتا

وقل لي يا نصيح لأنتَ أولىٰ ... بنُصحكَ لو بعقلك قدْ نظرتا

وتَعْذِلُني علىٰ التَّفريطِ لوْماً ... وبالتفريطِ دهْرَكَ قدْ قَطعتَا

وفي صِغَري تُخوِّفني المنايا ... وما تدري بحالكَ حيث شخْتا

وكنت مع الصِّبا أهدَىٰ سبيلاً ... فما لكَ بعدَ شَيْبِكَ قد نُكِستا

وها أنا لم أخُضْ بحْرَ الخطايا ... كما قد خُضْتَه حتى غَرِقْتا
ولم أشْرَبْ حُمَيًّا أمِّ دفْرٍ ... وأنت شربتَها حتى سَكِرتا
ولم أنشأْ بِعصرٍ فيه نفعٌ ... وأنت نشأتَ فيه وما انتفعتا
ولم أحْلُلْ بوادٍ فيه ظُلْمٌ ... وأنت حلَلْت فيه وانتهكْتَا
وقد صاحبت أعلاماً كِباراً ... ولم أرَكَ اقتديتَ بِمَنْ صَحِبْتا
وناداكَ الكِتابُ فلم تُجِبْهُ ... ونبَّهك المشيبُ فما انتبهتا
ويقُبحُ بالفتى فِعلُ التصابي ... وأقبحُ منه شيخٌ قد تفتَّى
ونفسَكَ ذُمَّ لاتَذْمُم سِواها ... لعيبٍ فهي أجدرُ من ذَمَمْتا
فأنتَ أحقُّ بالتنفيذِ منِّي ... ولو كنتَ اللبيب لَما نطقتا
ولو بَكت الدِّما عيناكَ خوفاً ... لذنبِكَ لم أقُل لكَ قد أمِنْتا
ومَنْ لكَ بالأمانِ وأنتَ عبْدٌ ... أُمِرتَ فما ائتمرْتَ ولا أطعْتا
ثَقُلْتَ من الذنوبِ ولستَ تخشى ... لجهلك أن تخِفَّ إذاً وُزِنتا
رجعْتَ القهقري وخبطْتَ عشوا ... لعَمْرُك لو وصلتَ لما رجعتا
ولو وافيتَ ربَّك دُون ذنبٍ ... ونُوقِشْت الحِسَابَ إذاً هلكْتا
ولم يَظْلِمْكَ في عملٍ ولكن ... عسيرٌ أنْ تقومَ بما حَمَلْتا
وتُشْفِق للمصِرِّ على المعاصي ... وترحَمُه ونفسَكَ ما رَحِمْتا
ولو قد جِئْتَ يوم الحشر فرداً ... وأبصرتَ المنازلَ فيه شتَّى
لأعظمْتَ النَّدامةَ فيه لهفاً ... على ما في حياتكَ قد أضعْتا
تَفِرُّ من الهجير وتتَّقيه ... فهلاَّ مِنْ جهنَّم قد فررْتا
ولسْتَ تُطيقُ أهْوَنَها عذاباً ... ولو كنتَ الحديدَ بها لذُبْتَا
ولا تنكرْ فإنَّ الأمرَ جِدٌّ ... وليس كما حسِبْت ولا ظننتا
أبا بكرٍ كشفتَ أقلَّ عيبي ... وأكْثَره ومُعْظَمه سترتا

فقل ما شئت فيَّ من المخازي ... وضاعفها فإنَّك قد صدقْتا
ومهما عِبْتني فلِفرْطِ علْمي ... بباطنه كأنَّك قد مدحتا
فلا ترضَ المعايبَ فهي عارٌ ... عظيمٌ يُورثُ المحبوبَ مقتا
ويَهْوي بالوجيهِ من الثُّريَّا ... ويُبْدلُه مكان الفَوْق تحْتا
كما الطَّاعات تُبدلك الدَّراري ... وتجعلُك القريبَ وإن بَعُدتا
وتنشرُ عنك في الدُّنيا جميلا ... وتَلْقى البِرَّ فيها حيثُ شِئْتَا
وتمشي في مناكبها عزيزاً ... وتجني الحَمْدَ فيما قد غَرسْتَا
وانت الآن لم تُعْرَفْ بعيبٍ ... ولا دنَّسْتَ ثوبَكَ مُنذ نشأتا
ولا سابقْتَ في ميدان زُورٍ ... ولا اوْضَعْتَ فيه ولا خَبَبْتَا
فإنْ لم تنْأ عنه نَشِبْتَ فيه ... ومَنْ لَك بالخلاصِ إذا نَشبتا
تُدنِّسُ ما تطهَّرَ منكَ حتَّى ... كأنَّك قبل ذلك ما طَهُرْتا
وصرت أسيرَ ذَنْبكَ في وِثاقٍ ... وكيف لكَ الفكاك وقد أُسرْتا
فخَفْ أبناءَ جنْسِك واخش منهم ... كما تخشى الضراغِمَ والسَّبنْتا
وخَالِطْهُم وزايلْهمُ حِذاراً ... وكن كالسَّامري إذا لَمسْتا
وإن جَهِلُوا عليكَ فقل سلامٌ ... لعلَّك سوف تسْلَم إن فعلتا
ومن لك بالسَّلامةِ في زمانٍ ... تنالُ العُصْمَ إلا إنْ عُصِمْتا
ولا تلبثْ بحيٍّ فيهِ ضَيْمٌ ... يُميتُ القلبَ إلا إن كُبِلْتا
وغرِّبْ فالتغرُّبُ فيه خيرٌ ... وشرِّق إن بريقكَ قد شَرِقْتا
فليس الزُّهدُ في الدنيا خمولاً ... لأنت بها الأميرُ إذا زَهِدْتا
ولو فَوْقَ الأمير تكونُ فيها ... عُلوًّا وارتفاعاً كنتَ أنتا
فإن فارَقتها وخَرجْتَ منها ... إلى دار السَّلامِ فقد سَلِمتا
وإن أكْرَمْتها ونظرت فيها ... لإكرامٍ فَنَفْسَكَ قد اهنْتا

جـمـعت لك النصـائح فـامـتـثلهـا حيـاتك فـهي أفـضل مـا امـتـثلتـا
وطولـت العــتــاب وزدت فــيــه لأنك في البطالـة قــد أطلتــا
ولا يغـررك تقـصـيـري وسـهـوي وخــذ بوصــيــتي لك إن رشــدتا
وقــد أردفــتــهــا ســتـا حـســانا وكــانت قــبل ذا مــائة وســتــا

أخي: الحياة ساعة فاجعلها طاعة. من عَمَّرَ وقته بالطاعات نال في الآخرة الجنات، ومن استسلم للشهوات تتابعت عليه الحسرات. إنها نفسك التي بين جنبيك ـ أغلى ما تملك ـ فلا تضيعها بين المحرمات حافظ عليها بالمسارعة في الخيرات لتنال جنةً عرضها الأرض والسموات. تزود. تزود. تزود.

تــزود لـــلـــذي لابــد مــنــه فــإن الموت مــيــقــات العــبــاد
وتــب ممــا جـنـيــت وأنــت حـي وحـــاذر قـــبل يوم الرقـــاد
أترضى أن تكون رفــيق قــوم هم بزاد وأنت بغـــيـــر زاد

إخواني: سار المتقون ورجعنا ووصلوا، وانقطعنا وأصابوا وامتنعنا، ونجوا من الإشراك ووقعنا تعالوا ننظر في آثارهم وندرس دارس أخبارهم ونبكي على ما نابنا ونحزن على ما لحقنا وأصابنا، ونتوب إلى الله ربنا ونستغفره من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم يا واسع المغفرة يا أرحم الراحمين.

قَــرُبَ الرحــيـل إلى ديار الآخــرة فــاجعل إلهي خيـر عـمري آخـره
فلئن رحــمت فــأنت أكـرم راحم وبحـــار جــودك يا إلهي زاخــرة
آنس مـــبــيـــتي في القـــبــور وارحم عظامي حين تبـدو ناخـرة
فـــأنا المسكين الذي أيامـــه ولـت بأوزار غـــدت مـــتـــواترة
وتولـه باللـطف عنـد مـــآله يا مـــالك الدنيـــا ورب الآخــرة
ولا تكتب بكفك غيـر شيء تبلى يســـرك في القـــيــامـــة أن تراه

تبلىٰ يدي بعد ما خطت أناملها ... كأنه لم يكن طوعاً له القلم
يا نفس ويحك نوحي حسرة وأسىً ... علىٰ زمانك إذ وجداننا عدم
واستدركي فارط الزلات واغتنمي ... شرح الشبيبة فالأوقات تغتنم
وقدمي صالحاً تزكو عواقبه ... يوم الحساب إذا ما أبلس الأمم
يدوم خطي زماناً في الورىٰ وأنا ... تحت التراب ويبقىٰ وجه بارينا
فأعجب لرسم بقي قد مات راسمه ... وهذه عادة الباري جرت فينا
فرحمة الله تهدىٰ نحو كاتبه ... يا ناظراً فيه قل بالله آمينا

والله ـ سبحانه ـ هو المسؤول أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم مدينًا لمؤلفه وقارئه وكاتبه «والمعين علىٰ نشره» من جنات النعيم، وأن يجعله حجة له ولا يجعله حجة عليه، وأن ينفع به من انتهىٰ إليه، إنَّه خير مسؤول وأكرم مأمول، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكتبه/ أبو عبدالملك
أحمد بن عبدالله السلمي
٢٢/ ١٢/ ١٤٢١هـ
كاتب عدل برئاسة محاكم الأحساء
إمام وخطيب جامع الإمام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ

المحتوى

الموضوع	الصفحة

***